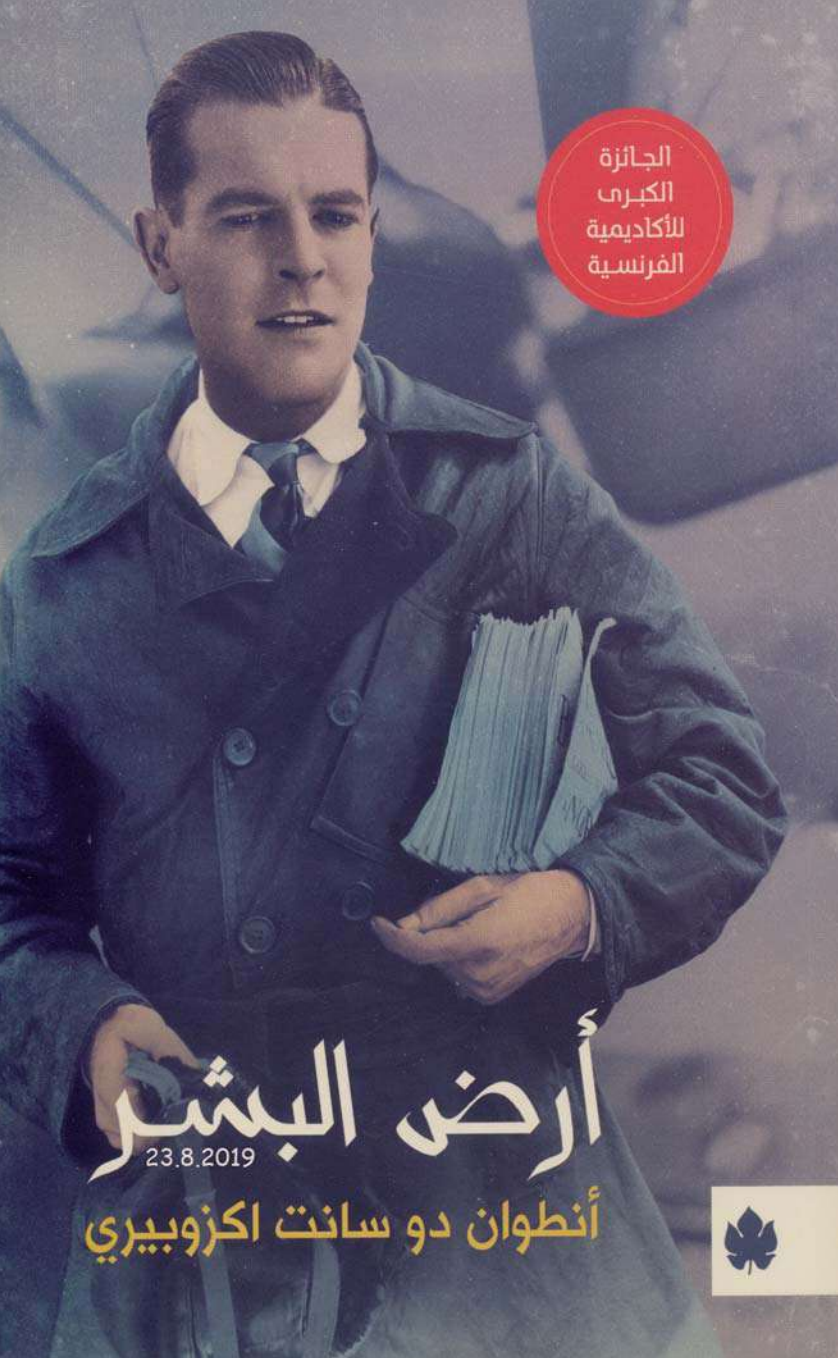

الجائزة
الكبرى
للأكاديمية
الفرنسية
أرض البشر
23.8.2019
أنطوان دو سانت اكزوبيري

أنطوان دو سانت اكزوبيري

أرض البشر

ترجمها عن الفرنسية

مصطفى كامل فودة





أرض البشـر



لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي: Terre des hommes

المؤلف: Antoine de Saint-Exupéry

سانت اكزوبيري، أنطوان دو ١٩٠٠-١٩٤٤.

أرض البشر / أنطوان دو سانت اكزوبيري؛ ترجمة مصطفى كامل فودة - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٨.

٢٤٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: 9789776467828

١- القصص الفرنسية.

أ- فودة، مصطفى كامل (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩٦٨٦ / ٢٠١٧

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد عاطف مجاهد

إليك يا «هنري جيوميه»، إليك يا زميلي، أهدي هذا الكتاب.

أنطوان دو سانت اكزوبيري

تُعلمنا الأرض عن أنفسنا أكثر مما تعلمنا الكتب جميعًا، ذلك أنها تقاومنا. ويعرف المرء نفسه عندما يقيسها بما تصادفه من عقبات. ولكن لا بد له من آلة ليصل لها. لا بد له من محراث أو مسحاة. فعندما يحرث الفلاح الأرض يقتلع بعض أسرار الطبيعة شيئًا فشيئًا، والحقيقة التي يستخلصها، هي حقيقة عامة. وهكذا الحال في الطائرة، آلة الخطوط الجوية، إنها تضع الإنسان في صميم المشاكل القديمة كلها.

وما زالت، أمام ناظريَّ، صورة أول ليلة طرت فيها بالأرجنتين، ليلة معتمة، لم تكن تلمع خلالها إلا أضواء قليلة منتثرة في السهل كأنها الشهب.

وفي ذلك البحر من الظلمات، كان كلٌّ منها يدل على معجزة ضمير إنساني. ففي هذا المنزل من يقرأ، من يفكر،

أو من يتابع مناجاته. وقد يكون في ذلك المنزل الآخر، من يبحث في سَبْر غور الفضاء، من يفنى في حساب يتعلق بهذا الكوكب. وهناك من يحب.

وكانت تلمع تلك النيران في الريف، من بعيد إلى بعيد، باحثة عن غذائها، وحتى أكثرها شحوبًا، نار الشاعر أو المدرس أو النجار. ولكن بين هذه الشهب الحية، كم من نوافذ مغلقة، كم من شهب خابية، كم من رجال نائمين...

لا بد من محاولة الوصول. لا بد من محاولة الاتصال ببعض تلك النيران التي تستعر، في الريف، من بعيد إلى بعيد.

الفصل الأول

خط الطيران

كان ذلك في عام ١٩٢٦ . التحقت منذ قليل كطيار حدث بشركة «لاتيوكوير» التي كانت تصل بين «تولوز» وداكار، وذلك قبل أن تُسمى «أيروبوستال» ثم «إير فرانس». وهناك تعلمت مهنتي. وكان عليَّ أنا أيضًا، ككل الرفاق، أن أمرَّ بدور التلمذة الذي مروا به جميعًا، قبل أن يكون لنا شرف قيادة طائرة البريد: من تجارب الطائرات، إلى التنقل بين «تولوز» و«بربينيان»، إلى دروس حزينة في الظواهر الجوية تتلقاها تحت مظلة شديدة البرودة. وكنا نعيش في جو من الخوف من جبال إسبانيا، ولم نكن نعرفها بعد، وفي جو من الاحترام للقدامى من الزملاء.

وهؤلاء القدامى، وكنا نلقاهم بالمطعم، قوم جفاة متباعدون، يلقون إلينا بنصائحهم من حالق. وعندما يعود أحدهم من

«أليكانتي» أو الدار البيضاء متأخرًا، وقد بلَّه ماء المطر، فيسأله أحدنا بوجل عن رحلته، كانت إجاباته المختصرة وأيامه العاصفة تخلق لنا عالمًا خرافيًّا مليئًا بالفخاخ والأشراك، والتلال التي تظهر فجأة، والعواصف القادرة على اقتلاع أضخم الأشجار. والشياطين السود التي تحرس مداخل الوديان والبروق التي تتوِّج هامات الجبال. هؤلاء القدامى كانوا يغذون، عن خبرة، احترامنا لهم. ولكن، من وقت لآخر، كان يغيب أحدهم وهو متمتع باحترامنا إلى الأبد.

وإني لأذكر إحدى المرات التي عاد فيها «بوري»، وقد قُتل فيما بعد في جبال «الكوربيير» ـ فها هو ذا الطيار القديم يجلس بيننا، ويأكل ببطء دون أن ينبس بكلمة، وقد ناء كتفاه تحت عبء المجهود. كان ذلك في مساء يوم ساء جوُّه، وعصفت سماؤه على طول خط الطيران، وبدت الجبال كأنها تتمرغ في حمأة، كتلك المدافع التي تقطعت حبالها المُثبِّتة فصارت تمرح على ظهور المراكب الشراعية في سالف الأيام. نظرت إلى «بوري» وابتلعت ريقي ثم خاطرت أخيرًا بسؤاله عن رحلته أكانت شاقة. لم يسمعني «بوري» فقد كان مقطب الجبين، منحنيًا على طبق أمامه. كان يحدث أحيانًا على ظهر الطائرات المكشوفة وفي

الجو السيء، أن ينحني الطيار فوق حاجز الهواء ليستطيع تمييز الأشياء، وحينئذ تصيبه صفعات الرياح وتبقى مُصفِّرة في أذنيه مدة طويلة. وأخيرًا رفع «بوري» رأسه وخُيل إليَّ أنه سمعني وأنه تذكر، وأخذ يضحك ضحكة رائقة مما أثار سروري وعجبي لأن «بوري» كان نادرًا ما يضحك، وقد ألقت تلك الضحكة القصيرة الضوء على تعبه. ولم يعطِ أي تفسير آخر لنجاحه، بل أحنى رأسه وعاود الأكل. وفي عتمة ذلك المطعم، وبين هؤلاء الموظفين الصغار الذين يأتون هنا ليريحوا أنفسهم من عناء متاعبهم التافهة، بدا لي هذا الزميل ذو الكتفين الضخمتين نبيلًا نبلًا رائعًا، فمن وراء حجابه الكثيف، طلع الملاك الذي يستقر بين جنبيه، هذا الملاك الذي هزم الشيطان.

وأخيرًا أتى المساء الذي دُعيت فيه بدوري إلى مكتب المدير وقال لي ببساطة:

ـ سترحل غدًا.

وبقيت واقفًا، منتظرًا أن يسمح لي بالخروج، ولكنه عاود الكلام بعد سكون قائلًا:

ـ أتعرف التعليمات جيدًا؟

لم يكن لمحركات ذلك الوقت من الأمان ما لمحركات

اليوم، وكثيرًا ما كانت تُلقي بنا فجأة ودون سابق إنذار في ضجة عظيمة كأنها ضجة الأواني المحطمة. وحينئذٍ كنا نستسلم لقمم إسبانيا الصخرية التي لا يكاد يوجد بها ملجأ أمين، وكنا نقول: «هنا عندما ينكسر المحرك، فإن الطائرة غالبًا ما تتبعه». ولكن الطائرة يمكن تعويضها. والمهم هو ألا يقترب الإنسان من الصخرة كالأعمى، ولهذا كانوا يُحرِّمون علينا، وإلا تعرضنا لأشد العقوبات، الطيران فوق بحار السحب التي تعلو المناطق الجبلية، إذ لو أصاب الطيار عطل، وغاص في ذلك النديف الأبيض، فقد يصطدم بالقمم من دون أن يراها.

ولهذا أصر صوت بطيء في تلك الليلة وللمرة الأخيرة على التذكير بالتعليمات قائلًا:

ـ إنه لجميل أن تطير بمعونة البوصلة في إسبانيا فوق بحار السحب، إن ذلك لشيِّق ولكن...

ثم قال ببطءٍ أكثر:

ـ ... ولكن تذكَّر: تحت بحار السحب... تجد الخلود.

وهكذا أصبح ذلك العالم الهادئ المنبسط السهل، الذي يكتشفه الإنسان عند طيرانه فوق السحب، عالمًا مجهولًا. وأضحى ذلك النعيم فخًّا. وأخذت أتخيل ذلك الشَّرك

الأبيض العظيم المنبسط هناك تحت قدمي حيث لا يسود أسفله ـ كما قد يُظن ـ لا حركة الناس، ولا ضجتهم، ولا رَكب المدائن، ولكن سكون أكثر إطباقًا وسلام أشد عمقًا، وبدا لي هذا الشَّرك الأبيض حدًّا فاصلًا بين الواقع وغير الواقع، بين المعلوم وما لا يمكن معرفته. وفهمت عندئذٍ أن أي منظر لا يكون ذا معنى إلا في ضوء ثقافة أو حضارة أو مهنة. فالجبليون يعرفون أيضًا بحار السحب ولكنهم لا يكتشفون فيها هذا الستار الخرافي.

وعندما خرجت من ذلك المكتب شعرت بزهو كأنه زهو الأطفال، فعما قليل، عند الفجر، سأصبح أنا الآخر مسؤولًا عن المسافرين، مسؤولًا عن بريد أفريقيا. ولكني أحسست أيضًا بخشوع عظيم. شعرت أني سيئ العُدة. لقد كانت إسبانيا قليلة الملاجئ الأمينة، وخشيت إن تعطلت الطائرة ألا أجد مهبطًا يستقبلني. وانحنيت على صحراء خريطتي دون أن أجد ما أنا في حاجة إليه. ولهذا ذهبت، والقلب مفعم بخليط من الخوف والزهو، لقضاء تلك السهرة عند زميلي «جيوميه». كان «جيوميه» قد سبقني في ارتياد هذه الطرق. وهو يعرف الحيل التي تفتح أبواب إسبانيا. وكان عليَّ أن أتلقى العلم على يدي «جيوميه».

عندما دخلت عليه ابتسم وقال:

ـ لقد بلغني النبأ. فهل أنت مغتبط؟

ثم ذهب إلى القمطر ليأتي بنبيذ «البورتو» والأكواب وعاد باسمًا يقول:

ـ فلنشرب نخب هذا. وسترى أن كل شيء سيجري على ما يرام.

كان يفيض بالثقة كما يفيض المصباح بالضياء، ذلك الزميل الذي ضرب فيما بعد الرقم القياسي في عبور جبال «الأنديز» والأطلسي الجنوبي. وكان يلبس في ذلك المساء قميصًا طوى كُميه ووضع ذراعًا فوق الأخرى، وعلى شفتيه بسمة مستبشرة وقال لي ببساطة:

ـ الزوابع، والضباب، والثلج، سيضايقك كل هذا أحيانًا. فاذكر عندئذٍ من عرفوا ذلك قبلك، وقل لنفسك: «ما نجح فيه الآخرون، أستطيع أن أنجح فيه أنا أيضًا».

ولكني بسطت خرائطي وسألته أن يراجع سير الرحلة معي، ولقد عاودني هدوء المدرسة وسلامها وأنا منحنٍ تحت المصباح ومستند إلى كتف الزميل القديم.

ولكن يا له من درس عجيب في الجغرافيا ذلك الذي تلقيته! لم يكن «جيوميه» يلقي عليَّ درسًا عن إسبانيا. إنه كان يجعل منها صديقة لي. لم يحدثني عن توزيع

المياه بها ولا عن سكانها أو حيواناتها. لم يحدثني عن «جواديكس»، ولكنه حدثني عن ثلاث أشجار من البرتقال تحفُّ حقلًا قرب «جواديكس» وقال لي:

ـ احترس منها، بيِّنها على خريطتك.

ومنذ ذلك الوقت شغلت هذه الأشجار الثلاث، على خريطتي، مكانًا أكبر مما تشغله جبال «سييرا نيفادا». لم يحدثني عن لورقة، ولكن عن مزرعة بسيطة قرب لورقة وعن صاحبها وصاحبتها. واحتل هذان الشخصان، التائهان في الفضاء على بُعد ١٥٠٠ كيلومتر، مكانة عظيمة. ففي موضعهما الأمين على سفح الجبل، كأنهما حارسا منار، كانا على استعداد لتقديم العون إلى بني الإنسان.

وهكذا بعثنا من عالم النسيان والبعد، تفاصيل يجهلها الجغرافيون جميعًا. فإن نهر «إبرُه» الذي يروي مدنًا عظيمة هو ما يهم الجغرافيين، أما ذلك الجدول المختبئ تحت الحشائش غرب «موتريل» والذي يسقي بضع أشجار زهور فلا يهمهم إطلاقًا.

ـ احترس من الجدول فإنه يفسد الحقل الذي يجاوره. بيِّنه على خريطتك.

إني سأذكر ثعبان «موتريل». لم يكن في مظهره ما يدل على

شيء ذي قيمة. ولا كان خريره الخافت إلا ليؤنس بضعة ضفادع، ولكنه لا ينام إلا بإحدى مقلتيه. ويرقد متمددًا تحت الحشائش في فردوس ذلك الحقل، يرتقبني على بعد ألفين من الكيلومترات، وعند أول فرصة سيحيلني جذوة من الضِّرام...

وهذه الشاء المقاتلة، واقفة على جنب التل، مستعدة للنزال:

ـ ستظن ذلك الحقل خاليًا، ثم إذا بتلك الشاء تمرح تحت عجلات طائرتك.

وكنت أجيب ببسمة باهرة على ذلك الخطر الخائن.

واستحالت خريطة إسبانيا في ضوء مصباحي، بلدًا من بلاد العجائب وأخذتُ أبيِّن الأماكن الأمينة والأماكن الخطرة. ووضعت تلك الراعية التي أهملها الجغرافيون في مكانها المضبوط.

وعندما استأذنت «جيوميه» في الخروج أحسست حاجة إلى السير في تلك الأمسية الشتوية المثلجة. فرفعت ياقة معطفي وسرت وسط المارة الجهلاء، وبين جنبيَّ حماس وليد. كنت فخورًا أن أسير إلى جوار قوم لا أعرفهم، وفي قلبي سر مكنون. لقد كانوا يجهلونني، أولئك الغرباء،

ولكنهم سيعهدون إليَّ في يقظة الفجر بهمومهم ورغباتهم، أحملها في حقائب البريد. إنهم سيلقون بآمالهم بين يديَّ، وهكذا سرت بينهم، متدثرًا بمعطفي، وكأني حاميهم، وما دروا شيئًا من مطلبي.

لا، بل لم يصلهم من الليل ما كان يصلني من رسالات. إنها تهُم لحمي ودمي، تلك العاصفة الثلجية التي كانت وشيكة الحدوث وربما عقَّدت رحلتي الأولى. كانت النجوم تخبو واحدة إثر أخرى فكيف يدري ذلك أولئك المتنزهون؟ لقد كنت وحيدًا في تلك النجوى. كانت مواقع العدو ترسل إليَّ قبل المعركة...

ولكن كلمات السر هذه، التي كانت تدفعني، تلقيتها واقفًا أمام واجهات الحوانيت المنيرة حيث تلمع هدايا عيد الميلاد. وكان يُخيل للناظر إليها أن كل ثمرات الأرض قد عُرضت فيها، وعندئذٍ تذوقت خمرًا يبعث الفخر، خمر التضحية. كنت مقاتلًا مهددًا فما كانت تهمني تلك البلورات المتلألئة المُعدة لحفلات المساء، ولا أغطية المصابيح هذه، ولا تلك الكتب. كنت غارقًا في رذاذ المطر، وكنت وأنا قائد الطائرة، أقضم فعلًا لب ليالي الطيران المر.

كانت الساعة الثالثة صباحًا حينما أيقظوني ففتحت بدفعة

واحدة خشب النوافذ ولاحظت أن الدنيا تمطر ولبست ملابسي.

بعد ذلك بنصف ساعة كنت جالسًا على حقيبتي الصغيرة فوق الإفريز اللامع من ماء المطر، أنتظر المركبة بدوري. وكم من زميل قبلي، في أول رحلة له، تحمل عبء هذا الانتظار وقلبه منقبض قليلًا. وأخيرًا بدت، في زاوية الشارع، مركبة الأيام الخالية تُحدث ضجيجًا كأنها حديد عتيق. وكان لي الحق بدوري، ككل الزملاء، أن أحشر نفسي على المقعد بين رجل الجمرك الذي لم يستيقظ تمامًا وبين بعض الموظفين. كانت تفوح من هذه المركبة رائحة الأشياء المخزونة، الإدارة المتربة والمكتب العتيق حيث تهوي حياة الرجال وكأنها تغوص في الرمال. وكانت تقف كل خمس دقائق ليركب كاتب أو موظف جمرك أو مفتش. وكان الركاب، وقد غفوا، يجيبون بهمهمة غامضة على تحية الراكب الجديد الذي لا يلبث أن يتكوم بطريقة ما، ثم ينام هو الآخر. كان ركبًا حزينًا يسير على بلاط غير منتظم بأحد شوارع «تولوز». ولم يكن المرء بقادر لأول وهلة أن يتبين الطيار بين هذا الخليط من الموظفين... ولكن المصابيح تجري، ولكن الأرض تقترب، وهذه المركبة العتيقة لم تكن إلا شرنقة يخرج منها الطيار خلقًا آخر.

وهكذا سبق لكل زميل أن أحس، ذات صباح مماثل، وما زال مرؤوسًا خاضعًا لهذا المفتش العابس، بمخلوق جديد يولد بين جنبيه، ذلك هو المسؤول عن بريد إسبانيا، الذي سيواجه بعد ثلاث ساعات، وسط البروق، شيطانًا هو «سبيتاليه»... حتى إذا هزمه بعد أربع ساعات، قرر بمحض مشيئته، وهو مطلق السلطة، أن يتخذ طريق البحر أو أن يقصد مباشرة سلسلة جبال «ألكوي»، والذي سينازل العواصف والجبال والبحار.

وهكذا سبق لكل زميل، وهو مختلط بذلك الفريق المجهول تحت سماء «تولوز» المعتمة شتاءً، أن أحس، ذات صباح مماثل، نمو ذلك السلطان المستقر فيه، الذي سيخلف وراءه بعد خمس ساعات أمطار الشمال وثلوجه، ويطلق الشتاء ثم ينزل في صميم الصيف، بعد أن يخفف من قيود المحرك، تحت شمس «أليكانتي» المشرقة.

اختفت تلك المركبة القديمة ولكن جفوتها وخشونتها ما برحتا حيتين في ذاكرتي. إنها رمز الإعداد الذي لا بد منه كي نتمتع بالمباهج القاسية لمهنتنا. لقد كان كل حدث فيها يتخذ مظهر الزهد والبساطة. وإني لأذكر كيف تلقيت فيها بعد ثلاث سنوات من تلك الليلة، ودون أن يتم تبادل عشر كلمات، خبر موت الطيار «لكريفان»، أحد مائة من

طياري ذلك الخط، الذين نالوا راحتهم الأبدية في يوم أو ليلة كثيرة الضباب.

وهكذا كانت الساعة الثالثة صباحًا حين سمعنا، في سكون مماثل، المدير المختفي في الظلام، يرفع صوته ويوجه الكلام للمفتش:

ـ لم يهبط «لكريفان» هذه الليلة في الدار البيضاء.

فأجاب المفتش:

ـ آه!

وبذل مجهودًا ليستيقظ، وقد انتُزِع من حلمه انتزاعًا، حتى يظهر اهتمامه، ثم أضاف قائلًا:

ـ آه، نعم، ألم ينجح؟ هل عاد؟

ورد المدير على ذلك ببساطة قائلًا:

ـ كلا.

وانتظرنا التكملة ولكن لم ينبس أحد بكلمة. وكلما مرت الثواني، وضح أن كلمة «كلا» هذه لن تعقبها كلمة أخرى، وأنها لا تُنقض، وأن «الكريفان» لم يكن قد هبط في الدار البيضاء فحسب، ولكنه لن يهبط أبدًا في أي مكان آخر.

وهكذا كان عليَّ في ذلك الصباح، وفي فجر رحلتي الأولى، أن أخضع لمراسم المهنة المقدسة، وأحسست بثقتي تتناقص كلما رنوت ببصري من خلال نوافذ المركبة الزجاجية إلى أرض الشارع اللامعة حيث انعكست صور المصابيح، وحيث رسمت الرياح فروع شجر تجري على صفحة الماء الراكد. وفكرت: «حقًّا إني لقليل الحظ، في رحلتي الأولى». ثم صعَّدت نظري إلى المفتش وقلت:

ـ أهذا جو سيء؟

فألقى على النافذة نظرة عادية وتمتم قائلًا:

ـ هذا لا يعني شيئًا.

وتساءلت بأي علامة إذن يمكن معرفة الجو السيء. كان «جيوميه» في مساء الليلة السابقة قد محا ببسمة واحدة كل أثر للتشاؤم الذي صبَّه علينا القدامى من الرفاق. ولكنهم عادوا إلى ذاكرتي حينذاك وتذكرت هذه الكلمات: «من لا يعرف الطريق حجرًا حجرًا، فإني أرثي له إذا قابلته عاصفة ثلجية، نعم أرثي له!». كان لا بد لهم من أن ينقذوا سمعتهم ولهذا يهزون رؤوسهم ويحدقون فينا بشفقة تربكنا كما لو كانوا يرثون لسذاجتنا البريئة.

وحقًّا، لكم منا كانت هذه المركبة الملجأ الأخير؟ ستون،

ثمانون؟ قادهم نفس هذا السائق الصامت، ذات صباح مطير. كنت أنظر حواليَّ فأرى نقطًا منيرة تلمع في الظلام، إنها لفائف يدل لمعانها على تأملات مدخنيها. تأملات تافهة، تأملات موظفين شاخوا. ولكم منا كان هؤلاء الرفاق آخر المشيعين؟

وسمعتهم أيضًا يتناجون بصوت خفيض. فكانوا يتكلمون عن الأمراض والنقود والهموم المنزلية المحزنة مما يبيِّن جدران ذلك السجن المظلم الذي احتبس فيه أولئك الرجال أنفسهم وعلى حين فجأة طلع وجه القدر عليَّ.

أيها الموظف القديم، يا زميلي هنا، لم يستطع أحد قط أن يحررك من هذا السجن، ولستَ مسؤولًا عن ذلك إطلاقًا. لقد أقمت سعادتك بأن سددت، كالنمل الأبيض، كل مخرج يوصلك للنور. والتففتَ ـ كالكرة ـ في اطمئنانك البرجوازي وفي عوائدك الثابتة وفي المراسم الخانقة للحياة الإقليمية، وأعليت هذا السور الوضيع ضد الرياح والأنواء والنجوم. إنك لا تريد أبدًا أن تقلق نفسك بكبرى المسائل، فكفاك ما لاقيت لتنسى حالك كإنسان. لست من سكان كوكب سيَّار، إنك لا تسأل نفسك سؤالًا بلا جواب، فأنت برجوازي من «تولوز». لم يأخذ أحد بيدك قط عندما كان ذلك ممكنًا. والآن، جفت طينتك ويبست،

ولن يستطيع أحد أن يوقظ الموسيقي النائم أو الشاعر أو الفلكي الذين ربما كانوا أول الأمر في حنايا نفسك.

لم أعد أشكو وابل المطر، إن سحر مهنتي يفتح لي عالمًا سأواجه فيه قبل ساعتين، الشياطين السود وهامات الجبال تتوِّجها البروق الزرق، وسأقرأ طريقي بين النجوم، عندما يجن الليل.

وهكذا سار تعميدنا المهني وابتدأنا رحلاتنا. وكانت تلك الرحلات تمر في الغالب بلا حوادث فكنا نغوص بسلام، كغاطسين محترفين، في أعماق مملكتنا. والآن وقد عرفنا تمامًا هذه المملكة، لم يعد الطيار والميكانيكي وعامل اللاسلكي يقومون بمغامرة، إنهم يحبسون أنفسهم في معمل، ويخضعون للمؤثرات لا لما يمر بهم من مناظر طبيعية. ففي خارج الطائرة تبرز الجبال من الظلمات، ولكنها ليست جبالًا، إنها قوى خفية يجب أن يحسب حساب الاقتراب منها، وعامل اللاسلكي يُدوِّن أرقامًا على ضوء مصباحه، والميكانيكي يبيِّن الخريطة، والطيار يصحح طريقه إن ابتعدت الجبال أو ظهرت أمامه القمم، وكان يريدها على يساره، وكل ذلك في صمت الاستعدادات العسكرية وسرها.

أما عمال اللاسلكي الساهرون على الأرض، فإنهم يدونون

بهدوء في كراساتهم نفس الإملاء التي يدونها زميلهم: «الساعة الثانية عشرة وأربعون دقيقة بعد منتصف الليل. الطريق على ٢٣٠. كل شيء في الطائرة على ما يرام».

وهكذا يسير الركب، لا يحس أنه في حركة، أنه بعيد عن كل دليل كأنه يسير في البحر ليلًا. ولكن المحركات تملأ هذه الغرفة المضاءة بهزة تُغيِّر معدنها. ولكن الساعة تدور. ولكن كيميا خفية تحدث في هذه الميناءات، في هذه المصابيح الكهربائية وفي هذه الإبر. وتهيء شيئًا فشيئًا هذه الإيماءات الخفية، وهذه الكلمات الخافتة، المعجزة التي ستحدث. وعندما تحين الساعة، يستطيع الطيار واثقًا أن ينظر خلال زجاج النافذة، فيرى الذهبَ وقد خُلق من العدم، يراه يشع من نيران الميناء الجوي.

وعلى الرغم من ذلك فقد عرفنا جميعًا رحلات شعرنا فيها فجأة، على ضوء وجهة نظر خاصة، ونحن على مدى ساعتين من الميناء الجوي، ببعد لم نكن نشعر بمثله ولو ذهبنا إلى الهند، ولم نكن نأمل العودة.

وهكذا لما عبر «مرموز» لأول مرة الأطلسي الجنوبي في طائرة مائية، اقترب آخر النهار من منطقة الحجر الأسود، فرأى أمامه أذناب عاصفة مائية ترتفع وتتضام شيئًا فشيئًا كما يرى الإنسان جدارًا يُبنى، ثم جن الليل فغطاها

وخبأها. ولما مرق بعد ذلك بساعة خلال السحب، وقع في عالم مسحور.

رأى عُمُدًا من الماء منتصبة متجمعة، وخيل إليه أنها واقفة لا تتحرك كأنها عُمُد سود في أحد الهياكل، تحمل فوق رؤوسها القبة المعتمة المنخفضة للإعصار، وكانت أشعة الضوء تسري من فتحات فيها، والقمر في ليلة التمام يرسل ضياءه بين العُمُد فيقع على البلاط البارد للبحر. وواصل «مرموز» طريقه بين هذه الأطلال المقفرة، ينثني من مسرى ضوء لآخر ويتفادى تلك العُمُد الضخمة حيث كان يسمع فيها زئير البحر الصاعد، وظل سائرًا أربع ساعات سويًّا على ضوء القمر نحو مخرج ذلك الهيكل. كان المشهد رائعًا حتى إن «مرموز» أدرك، بعد أن تخطى منطقة الحجر الأسود، أنه لم يشعر بالخوف.

وإني لأذكر أنا الآخر، إحدى تلك الساعات التي يتخطى فيها الإنسان تخوم العالم الحقيقي. كانت التنبؤات الجوية التي ترسلها محطات الطيران الصحراوية خاطئة كل تلك الليلة فخدعتنا أنا واللاسلكي «نيري». ولما رأيت الماء يلمع خلال شق في الضباب توجهت رأسيًّا إلى الشاطئ؛ إذ لم أكن أعرف منذ كم من الزمن كنا نغوص هكذا ناحية البحر.

ولم نكن واثقين من مقدرتنا على اللحاق بالشاطئ لأن الوقود قد ينفد. وحتى إذا وصلنا الشاطئ فلا بد من البحث عن المحطة الجوية. كانت ساعة مغيب القمر ونحن بلا معلومات عن مكاننا، وقد أصمت آذاننا، وأخذنا نفقد البصر شيئًا فشيئًا. وخبا القمر كما تخبو شعلة شاحبة، وسط ضباب يحاكي أريكة من الثلج. وبدأت السماء فوقنا تلتحف بالسحب، ثم صرنا نطير بين السحب والضباب، في عالم خلا من الضياء ومن كل محسوس.

وتوقفت محاطُّ الطيران التي كانت ترد علينا عن إخبارنا بموقعنا: «لا معلومات عن مكاننا. لا معلومات». كان صوتنا يصلهم من كل مكان وليس من مكان.

وفجأة وقد بدأنا نيأس، لمعت في الأفق نقطة منيرة عن يسارنا، وشعرت بمرح لجب، ومال «نيري» نحوي وسمعته يغني! لا بد أنها محطة الطيران، ولا بد أن هذا فنارها، لأن الصحراء تخبو في الليل وتُمسي أرضًا مواتًا. ولكن الضوء تلألأ قليلًا وما لبث أن انطفأ. كنا قد وجهنا مقدَّم الطائرة نحو نجم لمع ساعة غروبه دقائق، بين طبقة الضباب والسحاب.

ثم رأينا أنوارًا أخرى تشرق، فوجهنا مقدَّم الطائرة نحو كل واحد منها، يحدونا أمل صامت. ولما استمر الضياء،

حاولنا المحاولة العظمى، فأصدر «نيري» الأمر لمحطة «سيزنروس»: «أطفئوا فناركم ثم أضيئوه ثلاث مرات»، فأطفأت «سيزنروس» فنارها ثم أضاءته، ولكن الضوء الجامد الذي كنا نرقبه لم ينطفئ، إنه نجم لا يخبو.

وعلى الرغم من أن الوقود كان وشيك النفاد، فقد كنا في كل مرة نخدع أنفسنا بذلك الضياء، كان يبدو لنا أنه المحطة الجوية وأنه الحياة، ثم كان علينا أن نغيِّر ذلك النجم. وعندئذٍ شعرنا أننا تُهنا في الفضاء، بين مئات من الكواكب المحرَّمة علينا، باحثين عن الكوكب الحقيقي الوحيد، عن كوكبنا الفريد في احتوائه على مناظرنا الأليفة وبيوتنا العزيزة وأحبائنا.

الفريد في احتوائه... سأقول لكم الصورة التي بدت لي عند ذاك، وقد يخيل إليكم أنها من نسج خيال طفل. ولكنا في قلب الخطر نحتفظ بهمومنا كأفراد من البشر، وكنت عطشان وكنت جوعان. فإذا هبطنا «سيزنروس» فسنواصل الرحلة بعد ملء خزاناتنا بالوقود، ثم ننزل الدار البيضاء في نَسَم الفجر. عندئذٍ يكون العمل قد انتهى. وندلف أنا و«نيري» إلى المدينة حيث تفتح بعض المقاهي الصغيرة أبوابها في الفجر. ونجلس أنا و«نيري» إلى المائدة، في أمان شامل، ونضحك من الليلة السالفة

وأمامنا أهلة الخبز الساخنة وقهوة اللبن، ونتسلم، أنا و«نيري»، هدية الصباح من الحياة. وهكذا لا تتصل الفلاحة العجوز بإلهها إلا عن طريق صورة مرسومة، صورة ساذجة، أو عن طريق مسبحة. يجب أن توجه لنا لغة بسيطة لنستطيع فهمها. وهكذا تجمعت أمامي بهجة الحياة في هذه الرشفة الأولى المعطرة المحرقة، في هذا المزيج من اللبن والبن والقمح، الذي يصل المرء بالمراعي الهادئة والمزروعات الغريبة والمحصولات، الذي يصل المرء بالأرض كلها. وبين كل تلك الكواكب لم يكن هناك إلا كوكب واحد، يستطيع أن يُعد لنا هذا الإفطار الشهي، ليكون في متناولنا.

ولكنَّ أبعادًا شاسعة لا نستطيع تخطيها، كانت تتجمع بين مركبنا وبين تلك الأرض المسكونة. كل نعم الكون استقرت في هباءة من الثرى تائهة بين الأجرام السماوية. وكان الفلكي «نيري» يبحث عنها وهو دائم التضرع للنجوم.

وفجأة هزت يده كتفي وقرأت في ورقة قدمها لي:

> كل شيء على ما يرام، إن رسالة طيبة
> تصلني...

وترقبت والقلب راجف، أن يتم نقل الخمس أو الست

كلمات التي ستنقذنا، وأخيرًا تسلمتها، تلك الهبة من السماء.

كانت مُرسَلة من الدار البيضاء التي غادرناها مساء اليوم السابق وتأخرت في النقل فوصلتنا فجأة على بُعد ألفين من الكيلومترات ونحن بين السحب والضباب تائهين في البحر. وهي صادرة من ممثل الحكومة بميناء الدار البيضاء الجوي وقرأت فيها:

> يا سيد «دو سانت اكزوبيري»، إني مضطر أن أطلب إلى باريس مجازاتك. حلقت بالقرب من المظلات عند مغادرتك الدار البيضاء.

كان صحيحًا أني طرت قرب المظلات، وكان صحيحًا أيضًا أن ذلك الرجل يؤدي واجبه عندما يغضب منا. ولو كنت تلقيت ذلك التأنيب في مكتب ميناء جوي لتقبلتُه بخشوع ولكن الرسالة وصلتنا حيث كان يجب ألا تصل. وكانت نشازًا بين هذه النجوم النادرة وهذا الفراش من الضباب وهذا الطعم المهدِّد للبحر. كان مصيرنا ومصير البريد والطائرة بين أيدينا، وكنا نشقى في الكفاح من أجل الحياة، وذلك الرجل يبعث بغضبه التافه إلينا. ولكن بدلًا من أن نثور، شعرت و«نيري» بفرح مفاجئ عظيم. فهنا كنا نحن السادة، وقد أتاح لنا هذا الرجل أن نحس

ذلك. ألم يرَ ذلك الجاويش على أذرعتنا أننا ترقينا إلى رتبة اليوزباشي؟ لقد أقض مضجعنا وسط ذلك الحلم، عندما كنا نشق أعماق الفضاء، عندما كانت خيانة القمر همَّنا الوحيد ولا شاغل لنا سواه...

كان الواجب المباشر، الواجب الوحيد على الكوكب الذي ظهر فيه ذلك الرجل، أن يعطينا أرقامًا مضبوطة تعيننا في حسابنا ونحن بين الشهب، وكانت تلك الأرقام خاطئة. أما عن بقية الأمور فكان واجبًا على الكوكب أن يصمت. وكتب لي «نيري»:

خير لهم أن يعيدونا إلى أي مكان آخر، بدلًا
من أن يتسلوا بمثل هذا الهراء.

وكان يعني بكلمة «هم» هذه كل شعوب الكرة، ببرلماناتهم، ومجالس شيوخهم، وبحرياتهم، وجيوشهم، وأباطرتهم. وبعد أن أعدنا قراءة رسالة ذلك المجنون الذي كان يظن أن له شأنًا معنا، غيَّرنا طريقنا نحو عطارد.

وأنقذتنا أعجب الصدف: فما حانت الساعة التي ودعنا فيها كل أمل بالوصول إلى «سيزنروس»، حتى قررنا أن نتجه رأسًا إلى الشاطئ وأن نتَّبع ذلك الطريق حتى ينفد الوقود، وهكذا كان لدينا بعض الأمل ألا نسقط في البحر. ولكن لسوء الحظ كانت فناراتي قد خدعتني فجذبتني،

يعلم الله، إلى أي مكان. ولسوء الحظ أيضًا، كان الضباب كثيفًا، فإذا وصلنا الشاطئ ـ على أحسن الفروض ـ فلا بد من اختراق ذلك الضباب في الليل البهيم، مما يقلل أملنا في الوصول إلى الأرض دون كارثة. ولكن لم يكن لي الخيار.

كان الموقف بيِّنًا، حتى إني رفعت كتفيَّ بحزن عندما قدم لي «نيري» رسالة، لو وصلتنا قبل ساعة، لكان فيها نجاتنا:

«سيزنروس» تقرر تعيين موقعنا. «سيزنروس» تقول: طريق ٢١٦ مريب.

وهكذا لم تعد «سيزنروس» مدفونة في الظلمات. لقد طلعت هناك، ملموسة عن يسارنا. نعم، ولكن على أي بُعد؟ وتحدثت أنا و«نيري» حديثًا قصيرًا. سبق السيف العذل. واتفقنا. لو حاولنا الوصول إلى «سيزنروس» فربما لا نستطيع الوصول إلى الشاطئ. وأجابهم «نيري»:

سنواصل السير في اتجاه ٩٣ إذ ليس لدينا من الوقود ما يكفينا ساعة.

ولكن المحاطَّ الجوية كانت تستيقظ واحدة إثر أخرى، واختلطت بحديثنا أصوات أكادير والدار البيضاء وداكار. كانت محطات الراديو في كل مدينة قد أخطرت الموانئ الجوية. وقام رؤساء الموانئ الجوية بإخطار الزملاء،

وتجمعوا حوالينا شيئًا فشيئًا، كما يتجمعون حول سرير مريض. عطف حار لا جدوى منه، ولكنه برغم ذلك عطف يحس، نصائح عقيمة، ولكن كم هي رقيقة!

وفجأة برزت «تولوز»، رأس الخط، التائهة هناك على بُعد أربعة آلاف من الكيلومترات. واستقرت بيننا مباشرة وقالت توًّا:

ـ أليست الطائرة التي تقودها ف... (لقد نسيتُ الرمز)؟

فأجبنا:

ـ نعم.

فردوا:

ـ إذن لديكم وقود يكفيكم ساعتين، فخزان طائرتكم ليس من نوع «ستاندارد». اتجهوا إلى «سيزنروس».

* * *

وهكذا تصبح الضرورات التي تتطلبها مهنة ما، أداة لتغيير العالم وجعله أكثر ثراءً. وما من حاجة إلى ليلة مماثلة ليكتشف الطيار معنًى جديدًا للمشاهد القديمة: فالمنظر الثابت الذي يضايق المسافر، هو شيء آخر للطيار. وهذه الكتلة من السحب التي تسد مسالك الأفق، ليست حلية

بالنسبة له: إنها تهم عضلاته وتأتيه بمشاكل. فهو يحسب حسابها، ويقيسها، وتربطه بها لغة حقيقية. وهناك قمة ما زالت بعيدة، فبأي صورة ستظهر له؟ إنها ستكون هاديًا هينًا في ضوء القمر، أما إذا سار كالأعمى، ولم يجد طريقه إلا بصعوبة، وتردد في معرفة موقعه، عندئذٍ تستحيل تلك القمة مادة مفرقعة، وتملأ الليل كله بخطرها، كلغم واحد، تائه في البحر، تُسيِّره التيارات كما تشاء، فيفسد البحر كله.

وهكذا تختلف أيضًا البحار. فلا يرى العاصفة المسافرون العاديون، لأن الأمواج إذا لوحظت من ذلك الارتفاع الشاهق لم يبدُ منها شيء بارز، ويُرى الزبد ثابتًا لا يتحرك. ولا تظهر إلا أشجار من الماء المتجمد ذات فروع وأغصان. ولكن الطيار يعلم أن الهبوط هنا مستحيل، وتبدو له هذه الأشجار كأنها زهور سامة كبيرة.

وحتى إذا كانت الرحلة سعيدة، فإن الطيار الذي يحلق في مكان ما من خط الطيران، لا يرى مشهدًا عاديًّا بسيطًا. إنه لا يُعجب بألوان الأرض والسماء، ولا بآثار الرياح على صفحة الماء، ولا بسحب الشفق المُذهَّبة، إنه يتأملها جميعًا، كالزارع يجوس خلال ضيعته، فيعرف بآلاف العلامات مسير الربيع وخطر الثلج والمطر. والطيار المحترف يحل ـ هو أيضًا ـ رموز الثلج والضباب والليل

السعيد. والطائرة التي قد يُخيل إلينا في أول الأمر أنها تفصل بينه وبين كبرى المسائل الطبيعية، تُخضعه لها بشدة أعظم. فيبقى الطيار وحيدًا وسط محكمة شاسعة تعدها له سماء عاصفة، وينازع بريده ضد آلهة ثلاثة: الجبل والبحر والعاصفة.

الفصل الثاني

الزملاء

(١)

أسس خط الطيران الفرنسي من الدار البيضاء إلى داكار ـ فوق الصحراء الثائرة ـ بضعة زملاء ومن بينهم «مرموز». وكانت المحركات كثيرة العطب في تلك الأيام، وذات مرة تعطلت طائرة «مرموز» فوقع في أيدي رجال القبائل. وترددوا في ذبحه، فاحتفظوا به خمسة عشر يومًا ثم باعوه. وعاود «مرموز» الطيران فوق نفس هذه الأماكن.

ولما أُنشئ خط أمريكا، عُهد إلى «مرموز» ـ وهو دائمًا في الطليعة ـ بدراسة الجزء من الخط ما بين «بوينس آيرس» و«سانتياجو»، فبعد أن بنى معبرًا فوق الصحراء كُلِّف إقامة آخر فوق جبال «الأنديز». وسُلمت إليه طائرة

تستطيع الارتفاع إلى ٥٢٠٠ متر مع أن قمم تلك السلسلة الجبلية تصل في الارتفاع إلى سبعة آلاف متر. وطار «مرموز» ليبحث عن منفذ فيها. وبعد أن نجح في الرمال، واجه «مرموز» الجبال الشاهقة التي تقذف غطاءها الثلجي عند هبوب الرياح، وواجه ذلك الشحوب الذي يصيب الأشياء قبل العاصفة، وتلك الهزات العنيفة ـ بين جدران الجبال ـ التي ترغم الطيار على نزال مرير، وقَبِل «مرموز» الدخول في ذلك الصراع وهو يجهل كل شيء عن خصمه، ولا يدري أيخرج المرء حيًّا أم ميتًا من تلك الشدائد. كان «مرموز» «يحاول» من أجل الآخرين.

وأخيرًا، لفرط «محاولاته» ألفى نفسه سجينًا في «الأنديز».

سقط هو والميكانيكي على هضبة ارتفاعها أربعة آلاف متر وجوانبها عمودية، فظلا يومين معًا يبحثان عن طريق للخلاص. ولكن المسالك سُدت عليهما. وعندئذٍ قاما بالمحاولة الأخيرة، دفعا بالطائرة نحو الفضاء وقفزا فيها فلما بلغت الهوَّة غاصت فيها، وعند سقوطها اكتسبت سرعة كافية لتخضعها لآلات القيادة، فعدلها «مرموز» في مواجهة إحدى القمم ومسَّت الطائرة القمة، وكانت المياه تفيض من الأنابيب التي شققها التجمد أثناء الليل، ثم تعطلت الطائرة بعد سبع دقائق من الطيران

واكتشف «مرموز» السهل التشيلي تحته كأنه أرض الميعاد.

وفي اليوم التالي عاود «مرموز» المحاولة.

ولما تم كشف جبال «الأنديز» وتحسن فن عبورها، عهد «مرموز» بذلك الجزء من الخط إلى زميله «جيوميه» وذهب هو ليكتشف الليل.

لم تكن إضاءة محطاتنا الجوية قد تمت بعد، فعندما كان يريد «مرموز» الهبوط في الليل كانت ترسل نحوه إضاءة ضعيفة مصدرها ثلاثة مصابيح توقد بالبنزين.

ولقد نجح في طيران الليل وفتح الطريق.

ولما روَّض الليل، حاول «مرموز» أن يُروِّض المحيط. وحمل البريد للمرة الأولى في سنة ١٩٣١ من «تولوز» إلى «بوينس آيرس» في أربعة أيام. وعند عودته نفد الوقود منه في وسط الأطلسي الجنوبي وكان البحر هائجًا ولكن سفينة أنقذته هو وملاحي طائرته والبريد.

وهكذا عبَّد «مرموز» الرمال والجبال والليل والبحر. وسقط أكثر من مرة في الرمال والجبال والليل والبحر، ولكنه لم يكن يعود إلا ليبدأ مرة أخرى.

وأخيرًا بعد عمل دام اثنتي عشرة سنة، أرسل «مرموز» ـ

أثناء طيرانه فوق الأطلسي الجنوبي ـ رسالة قصيرة قال فيها إن المحرك الخلفي قد تحطم. ثم خيم السكون.

ولم يكن ذلك الخبر يبدو عظيم الخطر ولكن كل محطات الطيران من باريس إلى «بوينس آيرس» بدأت سهرها في قلق. فعشر دقائق لا قيمة لها في الحياة اليومية، ولكن قيمتها كبيرة في الطيران... فذلك الوقت القصير يحوي حَدَثًا مجهولًا، وسواء أكان ذلك الحدث خطيرًا أم غير خطير، فإنه تم وانتهى، ونطقت الأقدار بحكمها الذي لا مردَّ له وقضت يدٌ حديدية على ملاحي الطائرة بالهبوط سالمين أو مُحطَّمين. ولكن الحكم لا يُعلن لمن ينتظرون.

ومن منا لم يعرف تلك الآمال الواهنة، شيئًا فشيئًا، وذلك الصمت الذي يزداد خطرًا من دقيقة لأخرى كأنه مرض قاتل؟ كنا مليئين بالأمل ثم مرت الساعات وشعرنا أخيرًا أن الوقت طال. وكان علينا أن ندرك أخيرًا أن زملاءنا لن يعودوا وأنهم رقدوا في الأطلسي الجنوبي، رقدوا في ذلك المحيط الذي طالما ذرعوا سماءه. لقد استقر «مرموز» في خندقه، كالحاصد جمع قمحه بعناية، ثم نام في حقله.

عندما يلقى زميل حتفه بهذه الطريقة، يبدو موته متفقًا مع

تقاليد المهنة بل ربما كان أقل إيلامًا من ميتة أخرى. حقًّا لقد بعد ذلك الزميل، بعد أن وصل إلى تطوره الأخير، ولكن عمق الإحساس بفقده لم يبلغ بعدُ مبلغًا عظيمًا.

فمن عادتنا أن ننتظر طويلًا لنلقى زملاءنا، إذ هم منتثرون في الدنيا، أما زملاء خط الطيران فهم منتشرون من باريس إلى «سانتياجو»، منعزلون عن بعضهم كأنهم حراس لا يتخاطبون إلا لمامًا. ولا بد من صدفة لتلم شعث أفراد هذه العائلة الكبيرة. فبعد سنوات من الصمت يجتمع الزملاء مصادفة، حول مائدة في الدار البيضاء أو داكار أو «بوينس آيرس» ويصلون ما انقطع من حديثهم ويجمعون شمل الذكريات القديمة ثم يعاودون الرحيل... وهكذا ترى الأرض يانعة مجدبة. يانعة بهذه البساتين الخفية التي يصعب الوصول إليها، ولكن مهنتنا ترجعنا لها دائمًا إن لم يكن اليوم فغدًا، ولربما أبعدت الحياة ما بيننا وبين زملائنا، ولربما منعتنا ذكرهم إلا قليلًا، ولكنهم هناك، لا ندري أين، صامتون منسيون، ولكنهم أوفياء مخلصون! وإذا التقينا بهم في الطريق هزوا أكتافنا بحماس جميل! نعم، إن من عادتنا الانتظار...

ولكننا ندرك شيئًا فشيئًا أننا لن نسمع ضحكة ذلك الزميل الرنانة، ونحس أن ذلك البستان قد حُرِّم علينا إلى الأبد،

وعند ذاك يبدأ حزننا الحقيقي، حزن لا يمزِّق الأحشاء، ولكنه حزن مُر.

ولا عوض عن زميلنا المفقود؛ فلن يخلق المرء زملاء قدامى بمحض إرادته. وما من شيء يعدل ذلك الكنز من الذكريات المشتركة، والأوقات التي قضيناها معًا في شجار ووئام وكانت تفيض بالمشاعر القلبية. لا يستطيع المرء أن يعيد بناء أمثال تلك الصداقات، فمن العبث أن تأمل تفيؤ ظل شجرة لم تغرسها إلا منذ قليل.

وهكذا الحياة. غنينا زمنًا، فزرعنا وأينع زرعنا، ولكن ها هي ذي السنون تهدم بناءنا وتجتث زرعنا ويذهب الرفاق واحدًا إثر آخر فيحرموننا ظلهم الذي تفيأناه ويختلط بأحزاننا أسف دفين. ذلك هو إحساسنا بأننا نهرم.

هذا هو الدرس الذي علَّمنا إياه «مرموز» وآخرون، فإن عظمة مهنة ما قد تقاس بمقدرتها على توحيد بني الإنسان. وليست هناك إلا متعة فريدة، تلك هي متعة العلاقات الإنسانية.

فإذا عملنا فقط من أجل الربح المادي فإننا نبني بأيدينا جدران السجن الذي يحتوينا ونبقى به وحيدين إلا من نقودنا الفانية التي لا تجلب شيئًا يستحق الحياة.

وإذا بحثت في ذكرياتي عما ترك فيَّ أثرًا خالدًا، وإذا

أحصيت الساعات المعدودة، فإني أراها تلك التي لا تستطيع ثروة أن تجلبها، فما من ثروة تشتري صداقة «مرموز»، ما من ثروة تُنِيل المرء صداقة زميل ربطته بنا إلى الأبد محن عشناها معًا.

وليلة الطيران هذه بنجومها العديدة، وهذا الصفاء وهذه السيادة التي أُحسها لبضع ساعات، كل ذلك لا يشتريه المال.

وهذه النظرة الجديدة للحياة بعد مرحلة شاقة، هذه الأشجار والزهور والنساء، وهذه البسمات وقد نضَّرتها الحياة العائدة لنا مع الفجر، وهذه الموسيقى المنبعثة من الوجود والتي تعوضنا عن متاعبنا، كل ذلك لا يشتريه المال.

كلا ولا تلك الليلة التي قضيتها بالأراضي الثائرة والتي تعاودني ذكراها.

سقط ملاحو ثلاث طائرات على ساحل «ريو دورو» عند مغيب الشمس. هبط أولًا زميلنا «ريجيل» بعد أن تحطمت آلات الحركة بطائرته ثم نزل زميل آخر هو «بورجا» ليلتقط رجال الطائرة الأولى ولكن عطبًا غير جسيم أرغمه على البقاء وأخيرًا هبطت أنا، ولكن عندما وصلت كان الليل قد خيم على الكون، فقررنا أن ننقذ

طائرة «بورجا» وأن ننتظر إلى الصباح لنقوم بالإصلاحات اللازمة على خير وجه.

وقبل عام تمامًا، سقط زميلانا «جورب» و«إرابل» في نفس هذا المكان فذبحهما رجال القبائل الثائرون. وكنا نعلم أيضًا أن قافلة مغيرة قوامها ثلاثمائة رجل مسلحين بالبنادق، تخيم في إحدى نواحي «بوجدور». وربما كانت هذه الطائرات الثلاث قد استرعتهم. وبدأنا سهرتنا التي قد تكون الأخيرة.

وأعددنا العدة للمساء. فأخرجنا من مخزن الحقائب خمسة أو ستة صناديق بضائع وأفرغناها مما فيها ووضعناها على هيئة دائرة وأشعلنا داخل كل منها شمعة ضئيلة لم تكن بمنجى من الرياح. وهكذا بنينا قرية بشرية، في قلب الصحراء، وعلى ظهر هذه القشرة العارية لكوكبنا، وفي عزلة تُذكِّر بأيام الخلق الأولى.

وتجمَّعنا لقضاء الليل في ميدان قريتنا الكبير، في هذا المكان الرملي حيث ترسل شمعاتنا ضوءًا شاحبًا وانتظرنا. انتظرنا الصباح الذي قد ينقذنا، وقد يسلمنا لرجال القبائل. ولا أدري ما الذي جعل تلك الليلة شبيهة بليلة عيد الميلاد. كنا نقص ذكرياتنا، ونتنادر ونغني.

وتذوقنا ذلك المرح اللطيف الذي تحسه في حفل حسن

الإعداد. وذلك برغم أننا كنا في غاية الفقر؛ فما كنا نملك إلا الرياح والرمال والنجوم، وذلك أمر شاق حتى على أشد الرهبان نُسكًا. كان هناك ستة أو سبعة رجال مجتمعين على ذلك الفراش القليل الإضاءة، رجال لا يملكون شيئًا إلا ذكرياتهم، ومع ذلك كانوا يتقاسمون ثروات عظيمة خفية.

وأخيرًا نلتقي. نسير طويلًا جنبًا إلى جنب، وكلنا سجين صمته، أو نتبادل كلمات لا تنقل معنًى، ولكن تجيء ساعة الخطر فنتكاتف وندرك أننا أعضاء جماعة واحدة، وتتسع آفاقنا عندما نكتشف ضمائر الآخرين. وينظر كل منا للآخر، وعلى شفاهنا بسمة عظيمة. إننا كذلك السجين الذي تخلص من سجنه فبهرته عظمة البحر وسعته.

(٢)

وأنت يا «جيوميه»، سأقول عنك بضع كلمات، ولكني لن أضايقك بأن أصر على توكيد شجاعتك وكفاءتك الفنية، وأنا أرمي إلى غرض آخر عندما أتحدث عن أروع مخاطراتك.

فهناك صفة لا اسم لها، وربما يكون اسمها «الجِد»، ولكن هذه الكلمة لا تكفي، لأن تلك الصفة قد تكون

مصحوبة بأعظم ومضات المرح الباسم. إنها صفة النجار الذي يجلس أمام قطعة الخشب، يتحسسها ويقيسها، ولا يستهين بعمله، وإنما يستجمع كل فضائله ومزاياه ليعالجها.

لقد قرأت قصة تُمجِّد مخاطرتك يا «جيوميه»، وإن لي حسابًا قديمًا مع تلك الصورة المشوهة التي رسموها لك، ولا بد من تصفية هذا الحساب. لقد صوروك كـ«جافروش»(*) كما لو كانت الشجاعة تقتضي أن يتنزل الإنسان إلى درجة التهكم والسخرية في قلب أعظم الأخطار تهديدًا للحياة، وفي ساعة الموت. إنك لا تشعر بالحاجة إلى السخرية من أعدائك قبل مواجهتهم. فأمام العاصفة العنيفة، تقف فتحكم عليها وتقول: «هذه عاصفة عنيفة» ثم تقبل منازلتها وتقيس عنفها وقوتها.

وسأدلي بشهادتي عنك يا «جيوميه».

كنتَ قد اختفيت في الشتاء، منذ خمسين ساعة، أثناء طيرانك في «الأنديز». وعند عودتي من قلب «بتاجونيا» لحقت بالطيار «ديلي» في «مندوزا» لنبحث عنك، ولقد نقَّب كل منا خمسة أيام معًا، في تلك الأكوام من الجبال

(*) شخصية روائية تمثل صبي باريس الساخر المستهزئ. (المترجم).

من دون أن نكتشف شيئًا فلم تكن الطائرتان كافيتين. وخُيل إلينا أن مائة سرب لو طارت مائة عام لما أتمت ارتياد تلك السلسلة الضخمة من الجبال التي ترتفع قممها حتى سبعة آلاف من الأمتار، وفقدنا كل أمل. وحتى مهرِّبو البضائع، وهم لصوص يرتكبون جريمة في تلك الأصقاع من أجل خمسة فرنكات، حتى أولئك، رفضوا أن يخاطروا بتسيير قوافل للمعونة في تلك الجبال وقالوا: «إن في ذلك تعريضًا لحياتنا للخطر، فجبال «الأنديز» لا تُرجع أحدًا في الشتاء». ولما هبطنا الأرض أنا و«ديلي» في «سانتياجو» نصحنا الضباط التشيليون بعدم مواصلة البحث وقالوا: «إننا في الشتاء، حتى لو كان زميلكم قد هبط سالمًا فإنه لن يستطيع الحياة في الليل. فالليل هناك يمر على المرء فيحيله ثلجًا». ولما عاودتُ الانزلاق بين جدران الجبال وعُمُدها الشامخة، خُيل إليَّ أني لم أعد أبحث عنك، وإنما أسهر في سكون على جدثك المسجَّى في معبد الثلج.

وأخيرًا، في سابع يوم، بينما كنت أتناول طعام الغداء في أحد مطاعم «مندوزا»، أثناء فترة راحة بين رحلتين، دفع البابَ رجلٌ وصاح:

ـ «جيوميه» ما زال حيًّا.

ونهض الكل يتعانقون، وهم لا يعرف بعضهم بعضًا.

وبعد عشر دقائق كنت أطير ومعي اثنان من الميكانيكيين وهم «لفيفر» و«أبري». وبعد ذلك بأربعين دقيقة هبطت حذاء طريق إذ تبينت ـ ولا أدري كيف كان ذلك ـ العربة التي كانت تحملك بجوار «سان رافاييل». وكان لقاء رائعًا وبكينا جميعًا وضممناك إلى صدورنا ضمًّا قويًّا حتى خشينا عليك التلف، أيها الحي المبعوث، يا من صنعت معجزتك بيديك. وحينئذٍ نطقت بأول جملة مفهومة، وكانت فخرًا عظيمًا للإنسان:

ـ أقسم لك إن ما قمتُ به لم يكن يستطيع حيوان أن يفعله قط.

وقصصت علينا قصتك فيما بعد.

هبت عاصفة ثلجية فألقت من الثلج ما سمكه خمسة أمتار، في يومين، على السفح التشيلي لجبال «الأنديز»، وسد الثلج المنافذ حتى إن رجال الطيران الأمريكيين قفلوا راجعين ولكنك سرت في طريقك باحثًا عن منفذ في السماء. وقد اكتشفته إلى الجنوب بقليل على ارتفاع خمسمائة وستة آلاف متر، أي فوق السحاب، فالسحب لم تكن ترتفع أكثر من ستة آلاف متر، ولم يكن يظهر في الفضاء إلا هامات الجبال الشامخة، ثم وجهت مقدَّم طائرتك نحو الأرجنتين.

وفي مثل تلك التيارات الهابطة، يشعر الطيارون أحيانًا بنوع غريب من الضيق. فإن المحرك يستمر في الدوران ولكن الطائرة تغوص برغم ذلك. ويقاوم الطيار ليحتفظ بارتفاعه ولكن عبثًا فالطائرة تستمر في الهبوط. وحينئذٍ يستسلم الطيار ويترك طائرته تجنح ذات اليمين أو ذات الشمال ليرتكن إلى القمة التي تلطمها الرياح، ولكن الطائرة تستمر في الغوص ويخيل للطيار أن السماء كلها تهبط ويحس كأنه قد اختلط بأحد الحوادث الكونية. ولا مكان يلجأ إليه، ويحاول عبثًا العودة إلى المناطق التي كان الهواء يسنده فيها بقوة وصلابة كأنه العُمُد ولكن لا عُمُد هنا، فقد تخلخل كل شيء. ويغوص المرء في خرائب الكون نحو السحاب الصاعد رويدًا رويدًا حتى يصله ويختفي فيه.

وقلتَ لنا:

ـ ولقد أوشكتُ أن أوقف المحرك، ولكني عدلت عن ذلك. ويلقى الإنسان تيارات هابطة نحو السحب، وتبدو السحب كأنها ثابتة لأنها دائمة التكون في ذلك الارتفاع. إن كل شيء عجيب في الجبال العالية...

ويا لها من سحب!

ـ وبعد أن وقعتُ في ذلك الشَّرك، تركت عجلات القيادة

وتعلقت بقوة في المقعد حتى لا تلقي بي التيارات خارج الطائرة. وكانت الهزات عنيفة حتى إن سيور الجلد أدمت كتفيَّ وكادت تتمزق. ومنعني الجمَد من رؤية أي شيء. وسقطت كما تسقط قبعة من ارتفاع ستة آلاف متر إلى ارتفاع خمسمائة وثلاثة آلاف متر.

وفي ذلك الارتفاع، لمحت كتلة أفقية سوداء ساعدتني على تقويم الطائرة، إذ كانت بركة أعرفها وهي «اللاجونا ديل ديامنتي»، وكنت أعرف أنها كائنة في قاع قمع كبير، أحد جوانبه هو بركان «مايبو» الذي يرتفع إلى تسعمائة وستة آلاف متر. تخلصت من السحاب ولكن دوامات الثلج ما برحت تغشى بصري، وما كان بوسعي الخلاص من تلك البحيرة دون أن أصطدم بأحد جوانب القمع، عندئذٍ أخذت أدور حول البحيرة على ارتفاع ثلاثين مترًا حتى نفد الوقود بعد أن قضيت ساعتين في تلك المحاولات. ثم هبطت وإذا بالطائرة تنقلب، ولما خرجت منها أوقعتني العاصفة أرضًا، فنهضت فأوقعتني ثانية، فاضطررت أن أنزلق تحت مؤخر الطائرة وأن أحفر مخبأ في الثلج واحتميت بحقائب البريد وبقيت هكذا ثمانيًا وأربعين ساعة.

وبعد ذلك هدأت العاصفة، فبدأت السير. سرت خمسة أيام وأربع ليالٍ.

ولكن ماذا بقي منك يا «جيوميه»؟ لقد وجدناك حقًّا، ولكنك تحجرت وجف عودك وضؤلت جثتك فأصبحت كالمرأة العجوز! وحملتك في نفس المساء إلى «مندوزا» حيث جَرَت عليك الملاءات البيض جريان البلسم، ولكنها لم تُشفك. فقد سد عليك هذا الجسد المحطم جميع المسالك، وكنت تقلبه من جهة إلى أخرى دون أن تنجح في إسكانه مملكة النوم. لم يكن جسدك قد نسي بُعد الصخور والثلوج، فقد تركت آثارها عليك، وكنتُ أرقب وجهك الأسود المتورم وكأنه ثمرة شديدة النضج أصابتها الضربات، وكنتَ قبيحًا جدًّا وبائسًا إذ فقدتَ آلتي عملك الجميلتين، فقدت يديك اللتين تجمدتا من الثلج، وعندما كنت تجلس على حافة السرير لتستطيع التنفس، كانت قدماك الجامدتان تتدليان كأنهما كتلة ميتة. لم تكن قد أنجزت رحلتك بعد، فما زلت تلهث. وعندما تتقلب على الوسادة باحثًا عن السلام، يهاجمك موكب من الصور لا تستطيع له دفعًا. موكب مُختفٍ في حنايا رأسك، نفد صبره فقام ليتحرك، ويسير في رأسك، وهكذا كنت تعاود القتال ضد أعداء بُعثوا من قبورهم.

وكنتُ أسقيك الكثير من المنقوعات الساخنة:

ـ اشرب يا عزيزي.

ـ أتدري ما الذي أدهشني أكثر من أي شيء آخر؟

أنت ملاكم منتصر، ما زالت آثار الضربات العنيفة فيك، وإنك لتحيا مخاطرتك العجيبة مرة أخرى. وتتخلص منها شيئًا فشيئًا. وكنتُ أتخيلك خلال قصتك الليلية سائرًا بلا عصا ولا حبال ولا طعام، متسلقًا قممًا ارتفاعها خمسمائة وأربعة آلاف من الأمتار، أو متقدمًا على حافة جبال عمودية الجدران، دامي القدمين والركبتين واليدين، في بردٍ درجته أربعون تحت الصفر. وغاض مَعين دمك ونضبت قواك وذهب عقلك وأنت تتقدم بعناد كعناد النمل ثم ترجع لتتحاشى إحدى العقبات، وتنهض من كبواتك وتصعد السفوح التي لا توصل إلا إلى الفضاء، وتمنع نفسك الراحة لأنك لو استرحت لما نهضت من سرير الثلج.

وإذا سقطتَ نهضتَ مسرعًا حتى لا يحيلك الثلج حجرًا. وكان البرد يُجمد أوصالك من لحظة لأخرى، وإذا تذوقتَ طعم الراحة لمدة دقيقة أكثر من اللازم، كان عليك أن تُحرِّك أعضاءك الميتة لتستطيع القيام.

وكنتَ تقاوم المغريات، وقلت لي:

ـ في الثلج يفقد الإنسان غريزة البقاء. فبعد سير يومين أو ثلاثة أو أربعة، لا يتمنى المرء إلا النوم. وطالما تمنيتُه

ولكني كنتُ أقول لنفسي: إن امرأتي تعتقد أني لا أنفك أسير ما دمت حيًّا. وزملائي يعتقدون أني أسير. إنهم جيمعًا يثقون بي ولأكونن لعينًا إذا لم أسر.

وكنتَ تسير، وتقطع بطرف سكينك كل يوم جزءًا من خياطة حذائك حتى يسع قدميك المتجمدتين المتورمتين. وبُحتَ لي بهذا السر العجيب:

ـ من اليوم الثاني، كان أعظم ما يشغلني هو أن أمنع نفسي من التفكير. كنت أتألم كثيرًا وكان مصيري ميؤوسًا منه فلأظفر بالشجاعة الكافية للسير، كان عليَّ ألا أفكر في ذلك. ولسوء الحظ لم أكن أسيطر على عقلي تمام السيطرة إذ كان يجري كأنه عملية توليد الكهرباء، ولكنني كنت ما أزال قادرًا على أن أختار لعقلي صورًا، فكنت أفكر في فيلم أو في كتاب ولكن سرعان ما ينفد الفيلم أو الكتاب، وأعود سريعًا إلى التفكير في مصيري، وحينئذٍ كنت أدفع بعقلي إلى ذكريات أخريات...

وذات مرة، انزلقتَ وانطرحتَ على الثلج وحينئذٍ تنازلتَ عن النهوض. كنتَ كملاكم أنضبت ضربة قوية كل ما فيه من حمية، وانطرح يستمع إلى عَدِّ الثواني واحدة فواحدة، وهو في عالم عجيب، حتى الثانية العاشرة التي لا قومة بعدها.

ـ لقد فعلتُ ما استطعتُ فعله، وليس لي أي أمل، فلِمَ التصميم على هذا العذاب؟

كان يكفيك أن تقفل عينيك لتنال السلام في هذا العالم، ولتمحو منه الصخور والثلوج. فما تكاد تُغمض عينيك حتى تختفي الضربات والكبوات والأعضاء الممزقة والبرد المحرق، وحتى لا تجد أثرًا لعبء الحياة، ذلك العبء الذي لا بد لنا من حمله أنَّى ذهبنا كالحيوان. وبدأت تعرف طعم ذلك البرد السام الشبيه بالمورفين وقد صار يملؤك الآن نعيمًا. كانت حياتك تحتمي حول قلبك. ثم صار ضميرك يهجر شيئًا فشيئًا مناطق جسمك البعيدة، جسمك الذي شبع ألمًا فصار كجسم الحيوان ثم أضحى جمادًا لا يحس.

وحتى وساوسك قد سكنت ولم تدع نداءاتنا تصل إلى مسمعك أو بالأصح كنت تسمع تلك النداءات كأنها في حلم. وكنت تجيب بسير تسيره في حلم، سير سريع هيِّن يفتح أمامك بلا عناء كل ملاذ الأرض. وكم كان هينًا أن تنزلق كذلك في عالم أضحى عظيم الهناء لك! وبخلت علينا بعودتك يا «جيوميه».

ثم أتت وخزات الضمير من مكان قصيٍّ في نفسك. وامتزجت بذلك الحلم تفاصيل دقيقة:

ـ فكرتُ في امرأتي. إن قسيمة التأمين تحميها غائلة الفقر، نعم، ولكن...

في حالة اختفاء شخص يؤجل إعلان وفاته الرسمية مدة أربع سنوات، فبدت لك هذه الحقيقة واضحة مدوية ومحت ما عداها من صور. وكنتَ حينذاك مستلقيًا على وجهك على منحدر ثلجي فإذا أتى الصيف سار جسمك مع الطين نحو هوة من آلاف الهوات التي في جبال «الأنديز». وكنت تعلم ذلك ولكنك كنت تعلم أيضًا أن هناك صخرة بارزة تراها أمامك على بُعد خمسين مترًا.

ـ فكرتُ: لو نهضتُ فلربما استطعت أن أصلها. ولو بقيت على تلك الصخرة فإنهم سيجدونني في الصيف.

ولما نهضتَ سرت ليلتين وثلاثة أيام.

ولكنك لم تفكر في أن تسير أبعد من ذلك:

ـ عرفتُ اقتراب النهاية بعلامات كثيرة. وهاك إحداها. كنتُ مضطرًّا أن أتوقف كل ساعتين لأشق حذائي ولأدلك بالثلج قدميَّ المتورمتين ولأدع قلبي يستريح. ولكن في الأيام الأخيرة بدأت أفقد الذاكرة. كنتُ أسير مدة طويلة ثم يضيء النور حنايا نفسي فأجد أني قد نسيتُ شيئًا. ففي أول مرة نسيت قفازًا وكان ذلك خطيرًا

في مثل هذا البرد. كنت قد وضعته أمامي ثم سرت دون أن ألتقطه. ثم نسيت ساعتي، ثم سكيني، ثم بوصلتي، وفي كل مرة توقفت فيها كنت أزداد فقرًا على فقر.

إن ما ينقذ الإنسان هو أن يتقدم خطوة واحدة ثم يهون الأمر.

«أقسم لك إن ما قمتُ به، لم يكن يستطيع حيوان أن يفعله أبدًا»، هذه العبارة هي أنبل ما أعرف من الكلم، هذه العبارة تضع الإنسان في مكانه بين الكائنات وتشرفه وتبين مراتب الخليقة. وما أكثر ما تعود إلى ذاكرتي. وأخيرًا نمتَ وكان ضميرك قد ولَّى ولكنه سيُبعث مرة أخرى في هذا الجسد المحطم البالي المحترق، سيبعث مرة ثانية ويسيطر على الجسد ولن يعود الجسد إلا آلة له وخادمًا مطيعًا. ولقد عرفت أيضًا أن تُعبر عن فخرك يا «جيوميه» بهذه الآلة الجيدة:

ـ في اليوم الثالث مِن سيري وأنا بلا طعام أحسست أن قلبي لم يعد جيدًا جدًّا. وكنتُ أسير على سفح عمودي، معلقًا في الفضاء وأحفر حفرتين كبيرتين لأريح فيهما يديَّ، وإذا بقلبي يصيبه التعطل. كان يتردد ثم يعاود الخفقان ثم يخفق خفقًا غير منتظم. وأحسست أنه لو تردد لحظة واحدة أكثر من ذلك لنفضت يدي من الأمر.

لم أتحرك، وبقيت أنصت لنفسي. لم يحدث قط وأنا في الطائرة أن بقيت معلقًا هكذا قرب محركي مثلما كنت معلقًا حينذاك بقلبي. وكنت أقول له: «هيا بنا، قليلًا من الجهد! حاول أن تستمر في الخفقان». إنه قلب من نوع جيد! كان يتردد ولكنه كان يعاود الخفقان دائمًا. آه لو علمتَ، كم كنتُ فخورًا بذلك القلب!

وأخيرًا نمتَ نومًا متقطعًا بتلك الحجرة بـ«مندوزا» حيث كنت أسهر عليك. وفكرتُ قائلًا: لو كلمناه عن شجاعته، لرفع أكتافه ساخرًا. ولكننا نخونه أيضًا لو عظَّمنا تواضعه. فإن مكانه بعيد جدًّا عن تلك الصفة العادية. وإذا كان يسخر فإنما يفعل هذا لحكمته. إنه يعرف أن الناس إذا وقعوا في أمر جلل ذهب الروع من قلوبهم. فما يُرهب الإنسان إلا ما يجهله. أما إذا واجه أي شخص ذلك المجهول فإنه لا يعود مجهولًا مخيفًا. وإذا فحصنا الأمر ببصيرة نيرة رأينا أن شجاعة «جيوميه» هي قبل كل شيء نتيجة لاستقامته.

ولكن صفته الأساسية ليست في ذلك المكان. فعظمته هي في إحساسه بالمسؤولية، إحساسه أنه مسؤول عن نفسه وعن بريده وعن زملائه الذين يُعمر الأمل قلوبهم، فبين يديه آلامهم وأفراحهم. إنه مسؤول عما يبنيه الأحياء هناك،

وعليه أن يشاركهم في البناء. إنه مسؤول ـ بعض الشيء ـ عن مصير بني الإنسان، بقدر ما يسمح بذلك عمله.

إنه واحد من أولئك الكرام الذين يأخذون على عاتقهم مسؤولية عظيمة ويبسطون ظلهم فوق آفاق واسعة. وكَوْنك رجلًا هو أن تشعر بالمسؤولية، وأن تعرف العار عندما ترى أمامك بؤسًا يبدو أنه ليس من عملك، وأن تفخر بنصر ناله الزملاء، وأن تشعر عندما تضع لبنتك، أنك تشترك في بناء العالم.

ويود البعض تشبيه أولئك الرجال بمصارعي الثيران أو باللاعبين، فيمتدحون احتقارهم للموت، ولكني لا أبالي ذلك الاحتقار للموت إذا لم يكن في الأصل قائمًا على شعور بالمسؤولية التي يقبلها الإنسان عن رضا وإلا كان ذلك الاحتقار للموت علامة عجز أو رعونة شباب. عرفتُ شابًّا انتحر، ولا أدري أي عذاب أصابه في الحب فدفعه إلى أن يطلق الرصاص بعناية ويصوِّبه إلى قلبه، ولا أدري أي إغراء أدبي بعثه على لبس قفاز أبيض عندما قتل نفسه. ولكني أذكر أني لم أجد شيئًا من النبل في هذا المنظر المحزن، وإنما شعرت بما فيه من بؤس وحقارة إذ لم يكن وراء هذه الطلعة الجميلة وتحت هذه الجمجمة الإنسانية إلا صورة فتاة عادية شبيهة بالأخريات.

وأمام هذا المصير الحقير، ذكرتُ موت رجل حقًّا. موت بستاني كان يقول لي: «أتعرف، لقد كان العرق يتصبب مني أحيانًا وأنا أُقلب الأرض. وكان الروماتيزم يؤلمني في ساقي وكنت ألعن تلك العبودية، والآن كم أود أن أُعمل الفأس في الأرض. فإنه لعمل جميل. وكم يشعر المرء بالحرية وهو يُقلب الأرض! من سيشذب أشجاري من بعدي؟» كان يخيل إليَّ ذلك البستاني أنه مُخلف أرضًا مواتًا وكوكبًا جدبًا. كان الحب يربط بينه وبين أشجار الأرض قاطبة. كان أريحيًّا جوادًا وشريفًا عظيمًا. كان، كـ«جيوميه»، رجلًا شجاعًا يكافح الموت باسم ما فيه من خليقة.

الفصل الثالث

الطائرة

وماذا يهم يا «جيوميه» إذا كنت تقضي أيام عملك ولياليه في ضبط مقاييس الضغط وفي موازنة الأجهزة وفي التسمُّع لأنفاس المحركات وفي الاحتماء وراء خمسة عشر طنًّا من المعدن، ماذا يهم كل ذلك إذا كانت المشاكل التي تواجهك أخيرًا هي مشاكل الإنسان. وإنك لترقى مرة واحدة إلى سمو ساكنِ الجبال وإنك كالشاعر، تعرف كيف تتذوق مطلع الفجر. وكم تمنيتَ وأنت في غيابة ليل داجٍ عصيب، كم تمنيتَ، ظهور تلك الباقة الشاحبة، ذلك الضياء الذي يبرز من الأراضي السوداء في ناحية الشرق، تلك النافورة العجيبة التي تسيل أحيانًا أمامك، فتهبك البرء وكنت تظن أنك ميت لا محالة.

واستخدام هذه الآلة الدقيقة لم يجعل منك رجلًا فنيًا جافًّا. ويخيل إليَّ أنهم يخلطون بين الغاية والوسيلة، أولئك الذين ينزعجون كثيرًا من تقدمنا العلمي. وكل من يكافح من أجل المزايا المادية فقط لا يجني شيئًا يستحق الحياة. ولكن الآلة ليست غاية. والطائرة ليست غاية: إنها أداة، أداة كالمحراث.

وإذا حسبنا أن الآلة تفسد الإنسان فما ذلك إلا لأنه ينقصنا قليل من الرجوع إلى الوراء لنستطيع الحكم على مدى التحولات السريعة التي تمت أمامنا. فما قيمة مائة عام من تاريخ الآلات بالنسبة لمائة ألف عام من تاريخ البشر؟ إننا لم نكد نستقر وسط دنيا المناجم ومحطات توليد الكهرباء، إننا لم نكد نستقر في بيتنا الجديد الذي لم يتم بناؤه بعد. لقد تغير سريعًا كل شيء حولنا، تغيرت العلاقات بين البشر وتغيرت أحوال العمل وتغيرت العادات. وحتى نفسيتنا قد انقلبت رأسًا على عقب. فأفكار الفراق والغياب والبعد والعودة لم تعد تحوي ما كانت تشتمل عليه من معانٍ، وإن بقيت الكلمات دون تغيير. وهكذا نتكلم في دنيا اليوم لغة أنشئت لعالم الأمس. ويُخيل إلينا أن حياة الأمس أكثر استجابة لطبيعتنا، وما ذلك إلا لأنها أكثر استجابة للغتنا.

وكل تقدم جديد يبعدنا قليلاً عن عادات لم نكد نتعودها، ونحن في الحق مهاجرون لم نؤسس بعد وطننا الجديد.

وكلنا أحداث متبربرون ما زالت لعبنا الجديدة تبهرنا. وليس لمسابقات الطيران تفسير غير ذلك، فهذا الطيار يرتفع أكثر من زميله أو يطير أسرع منه. وننسى نحن لِمَ جعلناه يطير. فنهتم بالسباق نفسه وننسى الغاية. وهكذا الأمر في كل شيء. فترى القائد الذي يؤسس إمبراطورية، يهتم بالغزو قبل كل شيء. وترى الجندي يحتقر المدنيين المستعمَرين. ولكن ألم يكن الغرض من تلك الحملة إقامة هذا المستعمَر؟ وهكذا الحال في حماسنا للتقدم الذي أحرزناه. استخدمنا الناس لإنشاء الطرق الحديدية وإقامة المصانع وحفر آبار البترول ونسينا أننا نقيم تلك المنشآت لخدمة الناس. وكان سلوكنا أثناء الحملة كسلوك الجنود. ولكن لا بد لنا الآن من أن نَستعمر. لا بد أن نجعل بيتنا الجديد ـ الذي لم يتخذ له طابعًا بعد ـ يفيض بالحياة. كانت الحقيقة بالنسبة للبعض هي البناء، فأصبحت بالنسبة للآخرين، هي السكنى.

وسيصبح منزلنا شيئًا فشيئًا أكثر ملاءمة للطبيعة الإنسانية. وكلما تحسنت الآلة نفسها امّحت واختفت خلف وظيفتها. ويبدو أن كل جهد الإنسان الفني، وكل ما يحسبه من

حساب، وكل سهره في عمل الرسوم، إنما يوصل إلى غاية واحدة هي البساطة، وكأنه لم تكن هناك محالة من قيام أجيال عديدة بمختلف التجارب، لتستخلص تلك الاستدارة الرائعة التي نشاهدها في الأعمدة أو في أجسام السفن أو الطائرات حتى تهبها ذلك الجمال الطبيعي الذي نراه في استدارة ثدي أو كتف إنساني. وهكذا يبدو أن عمل المهندسين والرسامين والمحاسبين ليس إلا صقل ومحو وتخفيف أثر الاتصال بين جزءين غير متشابهين، أي تنسيق ذلك الجناح وموازنته حتى يصبح غير ملحوظ وحتى لا يعود هناك جناح معلق بجسد وإنما يكون هناك جسد كامل الجمال انبعث أخيرًا من المادة الأولية، جسم التحمت أجزاؤه بطريقة خفية وصيغ كما تصاغ القصائد. ويبدو أننا نصل إلى الإتقان التام عندما لا يكون هناك أي داعٍ لحذف شيء وليس عندما لا يكون هناك داعٍ لإضافة شيء. وفي نهاية تطور الآلة نجد أنها تختفي.

وهكذا بإتقان الاختراع نصل إلى حالة ينمحي فيها الاختراع نفسه. فكما تنمحي من الآلة شيئًا فشيئًا كل ميكانيكية ظاهرة وتبدو في آخر الأمر طبيعية كحجر صقله البحر، كذلك كان رائعًا أن ننسى الآلة شيئًا فشيئًا حين استعمالها.

وكنا في سالف الأيام نجد أنفسنا أمام مصنع معقَّد. أما اليوم فإننا ننسى أن المحرك يدور، فهو يؤدي وظيفته وهي الدوران، كما يخفق القلب، ولا نلتفت نحن إلى خفقان قلبنا. فلم تعد الآلة تستغرق انتباهنا، وأصبحنا نرى من خلالها وبوساطتها الطبيعة القديمة، الطبيعة التي يلتقي بها البستاني والملاح والشاعر.

فعندما يطير الطيار يدخل في عالَم يتصل فيه بالماء وبالهواء، وعندما تندفع المحركات وتمضي الطائرة المائية شاقَّة البحر ضد صدمات الأمواج يُسمع جرس كأنه قرع الطبول، ويمضي الطيار في عمله حتى ليكاد ظهره أن ينقصم، ويحس كلما أخذت الطائرة المائية في الإسراع أنها تُحمَّل بالقوة شيئًا فشيئًا، ويحس في هذا الجسم الثقيل تهيؤ الطائرة للطيران، وعندئذٍ يطبق يديه على آلات القيادة ويتسلم في راحتيه تلك القوة كأنها هبة من السماء. وتصبح تلك الآلات رسل قدرته، حتى إذا بلغت هذه القدرة أشدها، فصل الطيار طائرته عن الماء بسهولة عظيمة، واستقر بها في الهواء.

الفصل الرابع

الطائرة والكوكب

(١)

الطائرة آلة من غير شك، ولكن يا لها من أداة تحليل عظيمة! فلقد مكنتنا هذه الأداة من رفع النقاب عن وجه الأرض فعرفناه على حقيقته. خدعتنا الطرق طيلة قرون، وكنا كتلك الملكة التي أرادت زيارة رعاياها لترى أكانوا ينعمون بحكمها، فأقام رجال بلاطها ـ ليخدعوها ـ الزينات الجميلة في طريقها واستأجروا بعض الناس ليرقصوا أمامها. فلم ترَ شيئًا من مملكتها إلا هذا الخيط الضئيل، ولم تعرف قطُّ أن في صميم الريف قومًا يموتون جوعًا ويلعنونها.

وهكذا سرنا في هذه الطرق المتعرجة متجنبين الأراضي

القاحلة والصخور والرمال، سرنا في هذه الطرق التي تستجيب لحاجات الإنسان فتجري من نبع إلى آخر، تحمل الفلاحين من منازلهم إلى حقول القمح، وتستقبل، أمام الحظائر، الماشية وهي ما زالت نائمة، وتدفعها في الفجر إلى حقول البرسيم. وتصل هذه القرية بقرية أخرى لأن سكان القريتين يتزاوجون. وحتى لو خاطر أحد الطرق فاخترق الصحراء فإنك تراه ينثني عشرات المرات لينعم بالواحات.

وهكذا خدعتنا انثناءاتها كما تخدع الأكاذيب المعسولة، وسرنا أثناء رحلاتنا بأراضٍ يانعة وحدائق غُلب ومراعٍ منبسطة فجعلنا نرسم صورة جميلة لسجننا. وحسبنا هذا الكوكب غضًّا يانعًا.

ولكن نظرنا احتد وتقدمنا تقدمًا قاسيًا. وعلمتنا الطائرة أن نسير في خط مستقيم. فما نكاد نغادر المكان حتى نودِّع تلك الطرق التي تنعطف نحو المساقي والحظائر وتنثني من مدينة لأخرى، ونتخلص بذلك من عبودية حبيبة؛ إذ لا نعود في حاجة إلى الينابيع، ونتجه رأسًا إلى أغراضنا النائية. وعندئذٍ نكتشف من أعلى طرقنا المستقيمة القاعدة الأساسية التي تستقر عليها الصخور والرمال والأملاح، تلك القاعدة التي تهبط عليها الحياة

أحيانًا فترى الزهر وسط اليباب كقليل من الطحالب في قاع أرض خراب.

وحين نطير نصبح علماء طبيعة وعلماء حياة، فنفحص حضاراتنا التي تُزين بطون الوديان، والتي تنمو أحيانًا فتزهر وتتفتح كأزهار البساتين. وترانا عندئذٍ نقوِّم الإنسان بميزان الكون ونرقبه من نوافذ طائرتنا كما لو كنا نفحصه خلال آلات دراسية. وترانا عندئذٍ نعيد قراءة تاريخنا.

(٢)

عند اتجاه الطيار إلى مضيق «ماجلان»، جنوب «ريو جاليجوس» بقليل، يطير فوق رواسب بركانية قديمة سمكها عشرون مترًا. ثم يقابل عدة رواسب أخرى كالكثبان، ولكل كثيب منها فتحة من جانبه. وليس بينها بركان فخور ثائر كـ«الفيزوف»، إذ قد عمَّها جميعًا الهدوء.

ويستشعر ذلك الهدوء وهو دهش وسط هذا المنظر الذي فقدَ صبغته. ففي هذا المكان كانت البراكين تتجاوب بلهبها وبمقذوفاتها فإذا بها اليوم أرض خرساء، يزينها هنا وهناك جَمَد أسود.

وأبعد من هذا المكان تُرى براكين أعرَق في القِدم، ولذا تجدها متدثرة بلباس من الخضرة المذهَّبة، وقد تلقى بها أحيانًا شجرة نامية في فوهة بركان قديم كأنها زهرة في مِزهرة عتيقة. ويبدو السهل في ضوء آخر النهار كأنه بستان يحليه عشب قصير ولا يُرى في الأرض أي بروز إلا حول الفوهات القديمة الضخمة. وتجري هنا أرانب برية، ويطير هناك عصفور. إنها الحياة، استولت أخيرًا على كوكب جديد.

وأخيرًا قبل «بونتا أريناس» ترى آخر الفوهات وقد سُدت، وانحناءات البراكين وقد غطاها عشب متصل يمحو ما في الأرض من شقوق. فإذا بالأرض ملساء والانحدارات خفيفة حتى لينسى المرء أصله. ويمحو ذلك العشب أثر البراكين.

فها هي ذي أبعد مدن الجنوب، خلقتها مصادفة محضة، إذ وُجد قليل من التربة بين حمم البراكين وثلوج الجنوب. وكم هي محسوسة معجزة الإنسان قرب هذه الحمم السوداء! ويا له من لقاء عجيب! فكيف ولماذا أتى ذلك المسافر ليزور هذه البساتين المعدَّة، التي لا تصلح لسكناه إلا لفترة قصيرة جدًّا، لعصر جيولوجي واحد، ليوم مبارك بين الأيام؟!

وهبطتُ «بونتا أريناس» في هدأة المساء وارتكنت إلى نافورة وأخذت أرقب الفتيات. وعلى قيد خطوتين من سحرهن زاد شعوري بسر الإنسان الغامض. ففي عالم تتصل فيه الحياة بالحياة، وفي عالم تختلط فيه الزهور بالزهور على فراش الريح، وتعرف فيه الطيور كل بني جنسها، في هذا العالم، ليس هناك إلا البشر، يتقاطعون ويبنون وحدتهم.

فيا له من فراغ عظيم ذلك الذي خلقه بينهم نصيبهم من العقل! هذه فتاة تحلم وتكوِّن لنفسها عالَمًا فكيف أستطيع أن أفهمها؟ وماذا تعرف عن فتاة تعود إلى بيتها بخطوات وئيدة، خفيضة العينين، تبسم لنفسها وقد امتلأت بالخيالات وبمعسول الأكاذيب؟ لقد استطاعت أن تكوِّن لنفسها عالَمًا تعيش فيه، عالمًا خلقته من أفكار حبيبها وصوته وصمته، ثم أضحى كل من عداه برابرة بالنسبة إليها. وإني لأراها سجينة سرها وعاداتها وأصداء ذاكرتها الغانية، حتى لأحسها أكثر بعدًا مما لو كانت في كوكب آخر. هذه الفتاة التي وُلدت أمس من ثرى البراكين ومُعشوشب الأرض وملح البحار، ها هي ذي تضفي على نفسها مسحة إلهية.

«بونتا أريناس»! ارتكنت إلى نافورة، فرأيت عجائز يملأن

منها الجرار. ولن أعرف شيئًا عن قصة حياتهن. اللهم إلا حركة الخادمات التي أبدينها ساعتئذٍ. ورأيت طفلًا يبكي في صمت وظهره إلى الحائط، ولن يبقى شيء منه في ذاكرتي. اللهم إلا صورة طفل جميل فقدَ السلوة إلى الأبد. لقد كنت هناك غريبًا عن أولئك الناس ولم أستطع أن أنفذ في ممالكهم.

فعلى أي مسرح رقيق البناء تُمثَّل تلك القصة الكبيرة، قصة العداوة والصداقة والبهجة الإنسانية! ومن أين للناس هذا الخلود، وهم معرَّضون لصُدف الأقدار على هذه الحمم التي ما زالت حارة؟ من أين لهم هذا الخلود وأمامهم رمال المستقبل وثلوجه تهددهم وتنتظرهم؟ وما حضاراتهم إلا زينات هشة، يمحوها بركان أو بحر جديد أو سافياء من الرمال.

وتبدو هذه المدينة مستقرة على أرض حقيقية يخالها المرء عميقة التربة. وينسى الإنسان أن الحياة هنا ترف، كما هي في أي مكان آخر، وأنه لا وجود لأرض عميقة تحت أقدام البشر. وإني لأعرف غديرًا، على مدى عشرة كيلومترات من «بونتا أريناس»، يُبيِّن لنا هذه الحقيقة. فذلك الغدير تحيط به شجيرات ضعيفة وبيوت منخفضة، غدير متواضع يحاكي بركة في فناء مزرعة، ولكنه يخضع

لظاهرتي المد والجزر، ويواصل تنفسه البطيء بين تلك الأشياء الهادئة والشجيرات والأطفال الذين يلعبون، يواصل تنفسه، إذ هو يخضع لقوانين أخرى. فتحت سطحه الأملس وتحت طبقة الثلج الرقيقة التي تغطيه أحيانًا، وتحت المركب الوحيد البالي الذي يسري عليه، تحت هذا كله، ترى صدى لجهد القمر، فتؤثر الهزات البحرية في أعماق ذلك الماء الراكد، وهكذا تجري عمليات هضم أرضية، عمليات هضم عجيبة، تجري من هناك حتى مضيق «ماجلان» تحت طبقة التربة المغطاة بالعشب والزهر. وهذا الغدير الذي يبلغ المائة من الأمتار عرضًا والذي يقع على عتبة مدينة يُخيل للمرء فيها أنه في بيته، هذا الغدير المستقر على أرض البشر، ينبض لوَجيب البحر.

(٣)

إننا سكان كوكب سيَّار. ويفضل الطائرة يرينا هذا الكوكب أصله: فعلاقة القمر بغدير صغير تكشف لنا عن قرابة خفية. ولقد عرفت قرابات أخرى.

على حافة الصحراء بين «رأس جوبي» و«سيزنروس»، يطير المرء فوق هضبات مخروطية يتراوح عرضها بين

بضع مئات من الخطوات وثلاثين كيلومترًا، ولكن ارتفاعها ثابت. وهو يبلغ ثلاثمائة من الأمتار، وما عدا هذا التساوي في الارتفاع، فإن لونها واحد ونوع تربتها واحد وبروزها متشابه. وإذا رأيت عُمُد هيكل بارزة بمفردها من الرمال دلَّك ذلك على أن سقفها قد تهدم، وهكذا كانت هذه الهضبات الفريدة شاهدًا على أن هضبة واسعة كانت تصل بينها في سالف الأيام.

وفي السنوات الأولى لخط الدار البيضاء–داكار، كانت الآلات سريعة العطب، ولذلك كثيرًا ما كنا نضطر، بسبب تعطل المحرك أو البحث عن زملاء تائهين، إلى الهبوط وسط الأراضي الثائرة. والرمل خادع، تظنه ثابتًا تحت قدمك، فإذا بك تغوص فيه. أما عن الملاحات القديمة فيخيل إليك أنها صلبة وتسمع رنين أقدامك عليها ولكنها تنهار أحيانًا تحت ثقل عجلات الطائرة، وعندئذٍ تنقشع طبقة الملح عن بركة سوداء نتنة، ولهذا كنا نختار الهبوط على أسطح الهضبات الملساء كلما سمحت بذلك الظروف؛ إذ لم يكن تحت تلك الأسطح أي خطر.

ويرجع هذا الأمان إلى وجود رمل صلب ذي حبيبات ثقيلة نشأ من تجمع أصداف صغيرة دقيقة، لم تمسسها يد، على سطح الهضبة، ولكنها تفتت وتتجمع كلما نزلنا على طول

السفح. حتى إذا أتينا القاعدة، وهي أقدم مستودع، رأيناها تكوّن حجرًا جيريًّا نقيًّا.

ولقد حدث أثناء أسر رجال القبائل لزميلينا «رين» و«سير»، أن هبطتُ على إحدى تلك الهضاب الأمينة لأُنزل رسولًا من رجال القبائل، وبحثت معه قبل مفارقته عن طريق للوصول إلى حضيض الهضبة، ولكن جميع الحواف كانت عمودية وكان التخلص من ذلك المكان محالًا.

وبرغم هذا، فقبل أن أعاود الطيران لأبحث عن مكان آخر، بقيت هناك. وكنت أستشعر فرحًا صبيانيًّا في أن أُعلِّم بقدمي أرضًا لم يسبق لأحد أبدًا، إنسانًا كان أو حيوانًا، أن ترك بها أثرًا. ولم يستطع أي رجل من رجال القبائل أن يقتحم هذه القلعة الحصينة، ولم يسبق لأي أوروبي أن اكتشف هذه الأرض المجهولة. وكنت أذرع رمالًا عذراء، كنت أول من أجرى بين يديه كتبر ثمين، هذا الثرى من دقيق الأصداف، كنت أول من عكَّر صفو هذا السلام. وعلى تلك الأرض التي تحاكي شاطئ الثلج بالمناطق القطبية، كنت كبذرة ألقتها الرياح، كنت أول علامة للحياة أتت ذلك المكان.

وكان هناك نجم يلمع فأخذت أتملاه وأنا أفكر أن ذلك السطح الأبيض لم يُعرَّض إلا للشهب منذ مئات الآلاف

من السنين. فراش ناصع يمتد تحت سماء صافية. وأحسست برجفة في قلبي عندما وجدت حجرًا أسود على ذلك الفراش، أحسست برجفة كأنني على وشك اكتشاف عظيم.

كنت قائمًا على تل من الأصداف ارتفاعه ثلاثمائة متر، وهذه الكتلة العظيمة دليل قاطع على عدم وجود أي حجر، ولربما كانت هناك أحجار راقدة في أعماق الأرض، أحجار نتجت عن عمليات هضم بطيئة في باطن الأرض، ولكن أي معجزة رفعت ذلك الحجر منها فألقت به على هذا السطح الجديد؟ والتقطتُ لقيتي والقلب واجب، وكان حجرًا صلبًا أسود في حجم قبضة اليد وفي ثقل المعدن، وصيغ كأنه دمعة.

إن فراشًا ممتدًّا تحت شجرة تفاح لا يتلقى إلا ثمر التفاح، وإن فراشًا ممتدًّا تحت الشهب لا يتلقى إلا ثرى الكواكب، وما استطاع قطُّ أي حجر سماوي أن يدل على أصله بهذا الوضوح كما فعل ذلك الحجر الأسود.

وبالطبع عندما رفعت رأسي بدا لي أنه لا بد أن ثمارًا أخرى قد سقطت من تلك الدوحة السماوية. وقد أجدها في نفس المكان الذي هبطت عليه إذ لم يطرأ عليها شيء يحركها منذ مئات الآلاف من السنين ولأنها لم تكن لتختلط بأي

مادة أخرى. وقمت في الحال في رحلة استكشافية لأتحقق من فرضي.

وقد ثبت افتراضي، وجمعت لقياتي بمعدَّل حجر في كل هكتار وكانت كلها كقطع من حمم بركاني ولها صلابة الماس الأسود. وهكذا شهدت هذا الوابل البطيء من النار متجمعًا في موجز عجيب كأنه مقياس مطر النجوم.

(٤)

ولكن الأعجب من ذلك أن يوجد هناك، على ظهر هذا الكوكب المستدير، وبين ذلك الفراش الممغطس وتلك النجوم، عقل إنساني تنعكس فيه صورة ذلك المطر كما تبدو في المرآة، وفي مثل ذلك المكان يبدو الحلم معجزة. وإني لأذكر حلمًا...

وقعت ذات مرة في منطقة غليظة الرمال وكنت أنتظر مطلع الفجر، وكانت الكثبان الذهبية يبهرها النور من جانب، ويغطيها الظلام من جانب آخر، وفي ذلك المكان الجدب كان يخيم صمت كأنه صمت الأشراك، ويسود سلام كذلك السلام الذي يعقب انتهاء الأعمال، ونمت في ذلك السكون.

ولما استيقظت، لم أرَ إلا صفحة السماء المعتمة لأني كنت راقدًا على الأرض ووجهي إلى السماء، ولما لم أكن أدري بعد كنه تلك الأعماق أخذتني نوبة من الدوار؛ إذ لم يكن بيني وبينها عماد أستند إليه أو سقيفة أستظل بها أو غصن شجرة؛ كنت كغواص فُكت حباله وأُلقي في غيابة البحر.

ولكني لم أسقط قط، وشعرت أني مثبت بالأرض من قمة رأسي إلى أخمص قدمي، وأحسست نوعًا من الهدوء النفسي في أن أسلم ثقلي للأرض. وبدت لي الجاذبية حاكمة بأمرها كالحب.

وشعرت بالأرض تمسك ظهري، تسندني وترفعني وتحملني في ذلك الفضاء الدجوي. وأحسست أني منطبق على هذا الكوكب بقوة كتلك التي تلصقك بعربة ساعة دورانها وهي سائرة. وتذوقت هذه الزمالة الرائعة وهذا الأمان، وأحسست تحت جسدي ذلك السطح المتكوِّر لمركبي.

وشعرت تمامًا أني محمول على ظهر ذلك الفلك، حتى إني لم أكن لأعجب لو سمعت عند ذاك، شكوى صاعدة من أعماق الأرض، شكوى المواد وهي تجاهد في باطن الثرى، وكأنها عويل الشراعات القديمة حين عودتها لمرافئها، أو صراخ القوارب عندما تتقابل. ولكنْ ظَل

السكون مخيمًا في باطن الأرض. ولكن ذلك الثقل بدا منسجمًا معتدلًا متساويًا إلى الأبد، وكنت أستقر في صميم ذلك الوطن، كما تستقر جثث أسرى الرقيق المثقلة بالرصاص في قاع البحار.

وتأملتُ مصيري وأنا تائه في الصحراء، مهدد عارٍ بين الرمال والنجوم، يبعدني عن قطبَي حياتي صمتٌ عظيم؛ إذ كنت أعلم أني ربما قضيت أيامًا أو أسابيع أو شهورًا لأصلهما، وذلك إذا لم تجدني طائرة، أو إذا لم يقتلني رجال القبائل غدًا. وهنا لم أعد أملك شيئًا في هذه الدنيا، فما أنا إلا شخص فانٍ تائه بين الرمال والنجوم، لم أعد أحس بأي لذة سوى لذة التنفس...

وبرغم ذلك رأيت نفسي مفعمًا بالأحلام.

وأتتني بلا ضجة كأنها مياه الينابيع، ولم أدرك أول الأمر البهجة التي كانت تفيض على نفسي. فما سمعت صوتًا ولا رأيت صورة، ولكني شعرت بوجود شيء، أحسست صداقة قريبة مني حتى لأكاد ألمسها. ثم فهمت وأسلمت نفسي مغمض العينين، لسحر ذاكرتي.

فرأيت في مكان ما، بستانًا مليئًا بأشجار الصنوبر السوداء وأشجار الزيزفون، ورأيت منزلًا عتيقًا كنت أعشقه. وما كان يهمني أبَعُدَ ذلك المنزل أم قرب، أم عجز عن

أن يدفئني أو يؤويني، إذ لم يعد الآن إلا حلمًا. ما كان يهمني ذلك، وكفاني أنه موجود ليملأ ليلي بوجوده. فلم أعد ساعتئذٍ ذلك الجسد الملقى على شاطئ البحر، وإنما عرفت وجهتي، وكنت ابن ذلك البيت، تفعمني ذكرى روائحه، ويملأني نسيم ردهاته، وتفيض في نفسي تلك الأصوات التي كانت تبعث فيه الحياة. وحتى نقيق الضفادع في الغدران، أتاني هنا لاحقًا بي. وكنت في حاجة إلى كل هذه المعالم، لأعرف نفسي، ولأكتشف من أي غياب صُنع طعم هذه الصحراء، ولأجد معنى لهذا الصمت الذي قُدَّ من آلاف الصُّموت، في مكان يخرس فيه كل شيء حتى الضفادع.

كلا، لم أعد أسكن بين الرمال والنجوم، ولم أعد أتسلم مما يحيط بي من أشياء إلا رسالة باردة، وحتى طعم الخلود الذي ظننت أولًا أنه أتاني من هذا المكان، اكتشفت الآن منبعه. وعادت إلى ذاكرتي صورة صوانات منزلنا العظيمة وهي تنفرج عن نضيد من المفارش البيضاء كالثلج. ورأيت الخادمة العجوز تسعى من صوان إلى آخر وهي تفحص المفارش والملاءات فتبسطها ثم تثنيها وتعدها، حتى إذا ما رأت بِلى يهدد خلود المنزل صاحت قائلة: «يا ربي، يا لها من كارثة!» ثم تجري في

الحال لتفني ناظريها على ضوء المصباح، في إصلاح ذلك النسيج وكأنها راهبة معبد، تصلح ما بلي فيه، أو نوتي يرتق الشراعات، كانت تفني ناظريها لتخدم شيئًا أعظم منها، لتخدم إلهًا أو فُلكًا.

آهٍ! إني لمدين لكِ بصفحة يا آنستي. فعندما كنت أعود من رحلاتي الأولى، كنت أجدك غارقة حتى ركبتيك في طيات المفارش البيض، وأراك كل سنة وقد ازداد وجهك غضونًا وازداد شعرك بياضًا وأنت دائمة العمل، تُعدين لنومنا هذه الأغطية التي لا غضون فيها، ولأكلاتنا هذه المفارش التي لا خيط بها، تُعدِّينها لحفلاتنا الفرحة المنيرة. وكنت أزورك في حجرتك وأجلس أمامك وأقص عليك ما مر بي من أخطار قاتلة لأحرك نفسك، ولأفتح عينيك على الدنيا، أو لأفسد نظرتك إليها. وكنت تقولين لي إني لم أتغير كثيرًا، وإني كنت دائمًا ذلك الطفل الذي يمزق ثيابه فتصيحين قائلة: «يا ربي، يا لها من كارثة!»، يمزق ثيابه ثم يعود إلى المنزل لتُضمد جراحه وتُرتق ثيابه. كلا، كلا يا آنستي! لم تكن عودتي هذه المرة من آخر البستان، ولكن من آخر الدنيا، وكنت راجعًا ومعي روائح الوحدة النفاذة، وعواصف الرياح وسافيات الرمال، وأقمار المناطق الحارة الساطعة!

وكنت تقولين لي: «نعم يجري الأولاد ويقعون وتندق عظامهم ويظنون أنهم جد أقوياء». كلا، كلا يا آنستي لقد رأيتُ ما هو أبعد من هذا البستان! آه لو علمتِ كم هي ضئيلة هذه الظلال! آه لو علمتِ أنها لا أثر لها بين الرمال والصخور والغابات والغدران. وهل تدرين أن هناك بلادًا يرفع فيها الرجال بنادقهم بمجرد رؤيتهم أناسًا آخرين؟ وهل تعلمين أن هناك صحاريَ ينام فيها المرء في الليل المثلج بلا سقيفة يا آنستي وبلا سرير وبلا أغطية؟

كنت تقولين لي: «يا لك من متوحش».

ما كنت لأمسَّ إيمانها إلا بمقدار ما أؤثر في إيمان راهبة. وكنت أرثي لمصيرها الوضيع الذي أعماها وأصمَّها...

ولكني أنصفتها تلك الليلة في الصحراء، وأنا عارٍ بين الرمال والنجوم.

لا أدري ما يمر بي. وهذا الثقل يربطني بالأرض مع أن كل النجوم ممغطسة. ولكن قوة أخرى، ثقلًا آخر يعيدني إلى نفسي. وشعرت بوزني يجذبني نحو أشياء كثيرة! فأحلامي أكثر واقعية من هذه الكثبان ومن هذا القمر ومن هذا الوجود. آه! ليست معجزة المنزل أن يؤويك أو يدفئك، أو أن تملك جدرانه. إنما معجزته هي أن يُرسِّب

في نفوسنا شيئًا فشيئًا هذه المؤن من البهجة، إنما معجزته، هي أن يخلق في أعماق القلب ذلك الجبل المعتم الذي تسيل منه الأحلام كأنها مياه الينابيع...

صحرائي، صحرائي، ها أنتِ بأجمعك قد سحرَتك غازلة صوف!

الفصل الخامس

واحــة

طالما حدثتك عن الصحراء حتى لأود أن أصف لك واحة قبل أن أعاود الكلام عن البيداء. وتلك التي تعاودني صورتها ليست من الواحات التائهة في جوف الصحراء. وللطائرة معجزة أخرى فهي تلقي بك مباشرة في صميم السر الغامض. تكون في الطائرة كعالِم الحياة، تدرس من وراء نافذتك قرية النمل الإنسانية وتفحص هذه المدائن المستقرة بين السهول وسط الطرق التي تتفرع كالنجوم وتغذي البلاد برحيق الحقول كأنها الشرايين. وبينما أنت كذلك في طائرتك، إذا بإبرة مقياس ترتجف وسرعان ما تمسي هذه الباقة عالَمًا، وسرعان ما تجد نفسك سجين العشب، في بستان وسنان.

ليست المسافة مقياس النوى. فجدار حديقة قد يحوي من الأسرار أكثر مما يحويه سور الصين. وقد يحمي

الصمت نفس فتاة صغيرة أكثر مما تحمي الرمال الكثيفة إحدى الواحات.

وسأقص قصة هبوط قصير في أحد بلاد العالم. كان ذلك بالقرب من «كونكورديا» في الأرجنتين. ولكن قد يحدث ما رأيته هناك في أي مكان آخر، فالأسرار منتشرة في كل بقاع الدنيا.

هبطت في حقل، وما كنت أدري أني سأحيا لحظات كأنها من أساطير الجان. وركبت سيارة «فورد» قديمة لم يكن بها ما يميزها عن غيرها، ونزلت بمنزل هادئ عادي.

ـ سنؤويك الليلة.

وعند منعطف الطريق بدت في ضوء القمر باقة من الأشجار وخلفها ذلك البيت، ويا له من بيت عجيب! بيت منخفض ضخم كأنه حصن. بيت أساطير، ما تكاد تتخطى عتبته حتى تجد منزلًا كأنه الصومعة في هدوئه وأمنه.

وما كدت أنفذ فيه حتى طلعت عليَّ فتاتان، وحدقتا فيَّ بجد كقاضيين يقفان على عتبة عالم حرام. وزمَّت صغراهما شفتيها وضربت الأرض بعصا خضراء. وعندما قُدمت لهما سلمتا عليَّ دون كلمة، وعليهما مسحة من تحدٍّ عجيب، ثم اختفتا.

سحرني ذلك وسرني. وحدث في صمت خفيف كأنه الكلمة الأولى في سر مهموس.

ولم يعلق والدهما على ذلك إلا بقوله:

ـ إنهما متوحشتان.

ودخلنا.

كنت أحب في باراجواي ذلك العشب الساحر، الذي ينبت بين أحجار الأرض في العاصمة، ذلك العشب الذي يأتي كرسول من قِبَل الغابة الغائبة الموجودة، حتى يرى إذا كان الوقت لم يحن بعد ليقلب كل هذه الأحجار وليجعل عاليها سافلها! كنت أحب ذلك النوع من البِلى الذي لا يدل إلا على ثروة عظيمة. ولكني سُحرت في ذلك المنزل.

فقد كان كل شيء باليًا بِلى عجيبًا رائعًا، كشجرة عتيقة عدا عليها الزمن فشققها وغطتها الطحالب الخضراء، أو كأريكة خشبية جلس عليها العشاق منذ عشرات الأجيال. كان كساء الجدران الخشبي مستهلكًا، والنوافذ متآكلة وأرجل المقاعد مقوسة. ولم يكن القوم ليصلحوا شيئًا من ذلك ولكنهم كانوا ينظفون كل شيء بحماس. وكل شيء لامع نظيف مجلو.

وكان مظهر حجرة الاستقبال بالغ التعقيد كوجه عجوز غضَّنته السنون. وأعجبني كل شيء: الجدران المهلهلة والسقف الممزق وبالأخص خشب الأرض المهشم المرتج كأنه معبر معلق في الهواء، ولكن كل شيء لامع مطلي مجلو. بيت عجيب لا تلمح فيه أي إهمال أو أي تغاضٍ وإنما تحس فيه الاحترام العظيم. وكان كل عام يضيف شيئًا إلى سحره وإلى تعقد سماته وإلى حرارة جوِّه الودود، كما كان يزيد من مخاطر الرحلة التي لا بد منها للمرور من حجرة الاستقبال إلى قاعة الطعام.

كان يقال لي:

ـ احترس!

فهذا شق في الأرض قد أقع فيه فتتحطم ساقاي. لم يكن أحد مسؤولًا عن ذلك الشق فهو من صنع الزمن. كانوا أرفع من أن يبدوا عذرًا. فلم يقولوا: «نستطيع سد هذه الثقوب فنحن أغنياء...» كلا ولم يقولوا لي، ولو أن ذلك كان حقًّا، «إننا نستأجر هذا المنزل من البلدية لمدة ثلاثين سنة، وعليها هي أن تصلح...» لم يقولوا لي ذلك وكانوا يحتقرون إبداء الاعتذار أو إيضاح الأمر. وأقصى ما كانوا يفعلونه هو أن يقولوا:

ـ لقد بلي هذا الشيء نوعًا ما.

وكانوا يتكلمون بلهجة مرحة، فيحس المرء أن ذلك لا يحزنهم. تصور فريقًا من البنائين والنجارين والنقاشين، يُعملون آلاتهم الجاحدة في هذا الماضي الحافل، ويخلقون من هذا البيت، منزلًا جديدًا بلا أسرار ولا خفايا ولا فخاخ. أتتخيل ذلك المنزل الجديد؟

لم يكن غريبًا بعد ذلك أن تختفي الفتاتان في هذا البيت المسحور. وكيف يكون حال المخازن يا ترى إذا كانت حجرة الاستقبال على هذه الصورة؟ ففي قماطرها أكوام من الرسائل الصفراء وصكوك من مخلفات أجداد الأجداد. وهناك مفاتيح أكثر من الأقفال وليس بينها ما يتفق مع أي قفل. مفاتيح لا جدوى منها، تُحيِّر العقل وتجعل المرء يحلم بمخابئ تحت الأرض وخزائن مدفونة في جوف الثرى ونقود ذهبية.

ودُعينا إلى المائدة. وكنت أنشق من حجرة لأخرى تلك الرائحة المنتشرة كالبخور في كل مكان، تلك الرائحة التي يشمها المرء في المكاتب القديمة، إنها تساوي أريج الدنيا بأجمعه وكم كنت أحب تلك المصابيح التي تُحمل من حجرة لأخرى كما كان يحدث أيام طفولتي البعيدة. وكانت المصابيح ترسم على الجدران ظلالًا عجيبة متحركة وباقات من الضياء ومن الظلال. وما تكاد

المصابيح تستقر في مكان حتى تجمد مناطق الضياء وتحيط بها بحار الظلام هناك، حيث تُسمع شقشقة الأخشاب.

ثم عادت الفتاتان في سر وصمت كما سبق أن اختفتا. وجلستا إلى المائدة وعلى وجهيهما علامات الجد. لقد أطعمتا الكلاب والطيور، وفتحتا النوافذ لليل الصافي وتذوقتا في نسيم المساء عبير النبت. وهما الآن تبسطان منشفتيهما وترقبانني باحتياط من طرف عيونهما. وتتساءلان إذا كانتا تستطيعان، أم لا، أن تضعاني في صف حيواناتهما الأليفة. فهما تملكان حيوانين من الزواحف وقردًا ونحلًا، وكلها تعيش معًا في أحسن وئام، تعيش في فردوس أرضي جديد. وكانتا تسيطران على كل الحيوانات. تسحرانها بأيديهما الدقيقة، وتطعمانها وتسقيانها وتقصان عليها قصصًا تنصت لها جميعًا.

وتوقعت طبعًا من فتاتين لهما هذه الحياة، أن تستخدما كل عقلهما الناقد ودهائهما في إصدار حكم سريع سري ونهائي على الرجل الجالس أمامهما. وعادت إليَّ ذكرى من أيام طفولتي إذ كانت أخواتي يعطين درجات لمن يشرفن مائدتنا للمرة الأولى، فما يكاد الحديث يخفت

حتى تسمع في الصمت صوتًا يصيح: «إحدى عشرة!»، وما كان أحد يفهم ذلك ويتذوق سحره إلا أنا وأخواتي.

ولذلك كنت مرتبكًا لسابق تجربتي وزاد من ضيقي إحساسي أن قاضييَّ على درجة عظيمة من المهارة واليقظة. قاضيان يعرفان كيف يميزان بين الحيوانات المخادعة والحيوانات الساذجة، ويعرفان من سير ثعلبهما إذا كان ذا مزاج يسمح بالاقتراب منه أم لا، قاضيان لهما مثل تلك الدراية العميقة بخلجات النفوس.

وكنت أحب عيونهما الحادة ونفسيهما الفتيتين. ولكن كم تمنيت أن يغيرا تلك اللعبة. وخوفًا من تلك «الإحدى عشرة»، كنت أقدم لهما الملح في صمت وأسكب لهما النبيذ، ولكن عبثًا فقد بقي مظهر الجد العذب مرتسمًا على وجهيهما، طابع القضاة الذين لا تُشترى ذمتهم.

وحتى التملق لم يكن مجديًا معهما فهما تجهلان الغرور، ولكنهما تعرفان الشَّمَم الجميل وتعتقدان في نفسيهما من الفضل أكثر مما كنت أجرؤ على التفوه به. ولم أفكر حتى في الاستفادة من مهنتي؛ إذ كان يمكنني الصعود حتى أعلى شجرة الساج لأطمئن على أصدقائهما من الطير ولأحييها!

وبقيت الفتاتان صامتتين ترقبانني وأنا أتناول الطعام،

وكثيرًا ما التقت نظرتي بنظرتيهما المختلستين حتى إني توقفت عن الكلام. وأطبق السكون، ثم سمعت صفيرًا خفيفًا على خشب الأرض ثم حفيفًا تحت المائدة ثم صمت كل شيء. ورفعت عينيَّ القلقتين المتسائلتين فإذا بصغرى الفتاتين وقد سرها امتحاني من غير شك، تستخدم آخر محكٍّ لديها فتقول لي وهي تقضم بأسنانها الحادة الفتية قطعةً من الخبز، تقول لي بسذاجة كانت تنتظر أن تروعني وتدهشني:

ـ إنها الحيَّات.

وصمتت مقتصرة على ذلك الإيضاح كما لو كان ذلك كافيًا لإفهام شخص متوسط الذكاء. ثم ألقت عليَّ أختها نظرة خاطفة كأنها البرق لتحكم على أول خلجة لي. وخفضت كلتاهما وجهها السَّني الرائع وواصلتا الطعام.

ـ آه! إنها الحيَّات...

ومرت تلك الكلمات دون أن أفهمها. كان ممكنًا أن تسري الحيات بين قدمي وأن تمس إحدى ساقيَّ.

ولكن لحسن حظي تبسمت عندئذٍ. وتبسمت دون تصنع ولو أني تصنعت شيئًا لشعرتا به. تبسمت لأني كنت مرحًا، ولأن ذلك المنزل كان يضاعف سروري من لحظة لأخرى،

ولأني كنت أريد أن أعرف شيئًا أكثر عن تلك الحيَّات. وسارعت كبراهما لتساعدني فقالت:

ـ جحرها تحت المائدة.

ثم أضافت أختها:

ـ إنها تعود حوالي العاشرة مساءً، أما في النهار فإنها تخرج للصيد.

وكنت بدوري أختلس النظرات لهاتين الفتاتين فأرى رقتهما وضحكتهما الصامتة خلف تلك الطلعة الهادئة. وملأني الإعجاب بتلك العظمة والسيادة التي كانت تفيض منهما.

وهأنذا اليوم أحلم. وقد أضحى كل ذلك نائيًا. وأين الآن هاتان الجنيتان؟ لقد تزوجتا من غير شك. ولكن هل تغيرتا؟ إنه من الخطورة بمكان أن تصبح الفتاة امرأة. وماذا تصنعان في بيت جديد؟ وكيف صارت علاقتهما مع حشائش البرية ومع الأفاعي؟ لقد كانتا ممتزجتين بشيء من الكون. ولكن ذات يوم استيقظت المرأة المستقرة بين جنبي الفتاة، وفكرت عندئذٍ أن تعطي تسع عشرة درجة لأحد الرجال. وأصبحت تلك الدرجة تؤثر في صميم قلبها. وعندئذٍ تقدم غِرٌّ. ولأول مرة انخدعت تلك العيون

الحادة فأضفت على هذا الرجل ألوانًا جميلة. وإذا كان الغِر ينظم القول، ظنته الفتاة شاعرًا، واعتقدت أنه يفهم ما تحبه وأنه يحب الزواحف مثلها. وعندئذٍ وهبت له قلبها وهو غابة برية، مع أن ذلك الرجل لا يحب إلا البساتين المُعتنى بها. واستصحب ذلك الغِر الأميرة إلى العبودية.

الفصل السادس

في الصحراء

(١)

كانت تلك النعم حرامًا علينا عندما كنا نطير أسابيع وشهورًا وسنين في الخط الصحراوي ونحن سجناء الرمال نسعى من حصن إلى آخر دون أن نعود. ولم يكن بتلك البيداء واحات شبيهة، فأين الحدائق والفتيات، يا لها من أساطير! نعم، هناك بعيدًا جدًّا، نستطيع أن نعاود الحياة عندما ينتهي عملنا، وهناك تنتظرنا آلاف الفتيات. إنهن هناك، بين حيواناتهن الزاحفة وبين كتبهن ينشئن على مهل نفوسًا نضرة. نعم إنهن يصبحن جميلات...

ولكني أعرف الوحدة. أذاقتني طعمها ثلاث سنين في الصحراء حيث لا ينزعج المرء من شبابه الذي يفنى

وسط الصخور، إذ يبدو لمن يعيش في الصحراء، أنها الدنيا بأجمعها، الدنيا البعيدة عنه، هي التي تفنى. فهناك قد أخرج الشجر ثمره، وأنضجت الحقول قمحها، وأمست النساء رائعات. ولكن الموسم يتقدم، فلا بد من المبادرة بالعودة. ولكن الموسم يتقدم، والمرء سجين هناك بعيدًا... وتسيل نعم الأرض بين الأصابع كأنها رمل الكثيب الناعم.

ولا يستشعر الناس عادة سير الزمن فهم يعيشون في سلام وقتي. ولكننا كنا نحسه عندما نصل المهبط وكانت تُثقلنا الرياح الدائمة. كنا كالمسافر في قطار سريع تملأه ضجة العجلات المرتطمة في الليل، ويحس قطرات الضوء المنقذفة خلال النافذة وسريان الأرياف وقراها وبيوتها المسحورة، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ بشيء منها لأنه في رحلة. ونحن أيضًا، تحركنا حمى خفيفة وما زالت آذاننا تُصفر من ضجة الطيران ونشعر أنَّا ما برحنا سائرين في الرحلة برغم هدوء محطة الطيران. وكنا نحس نحن أيضًا أن دقات قلوبنا تحملنا نحو مستقبل مجهول خلال هذه الرياح.

ويزيد العصيان في وحشة الصحراء. فكانت ليالي «رأس جوبي» يقطعها كل ربع ساعة صوت كأنه دقة ساعة

الحائط، ذلك هو صوت الحراس وهم يتنادون بصيحة منتظمة. وهكذا كان حصن «رأس جوبي» يحمي نفسه وسط القبائل العاصية وضد أخطار لم يرها أحد. وكنا نحن ركاب هذا الفلك الأعمى ننصت لذلك النداء وهو يتضخم كلما اقترب منا.

وبرغم ذلك فقد عشقنا الصحراء.

وإذا كانت الصحراء تبدو لأول وهلة وليس بها إلا الفضاء والسكون، فما ذلك إلا لأنها لا تبدي حسنها إلا لمن يطيلون الإقامة بها. وإن قرية بسيطة في بلادنا لتبدو مجهولة لمن لا يُنعم النظر فيها. فإذا لم نطلّق الدنيا من أجلها، وإذا لم نعتنق تقاليدها ونأخذ بعاداتها ونفهم ما فيها من منافسات، فإننا نجهل كل شيء عنها. ومثل آخر، مثل ذلك الرجل المعتكف في صومعته، يعيش وفق قواعد نجهلها نحن، ذلك الرجل يبدو في وحدة شاهقة وعلى بُعد سحيق لن تستطيع أي طائرة أن توصلنا إليه. فلِمَ نذهب لزيارة صومعته؟ إنها خالية بالنسبة لنا. إن عالم الإنسان عالم داخلي خفي. وهكذا الصحراء، لم تُصنع من الرمال ولا من الطوارق ولا من رجال القبائل حتى ولو كانوا مسلحين بالبنادق.

فإذا استشعرتَ العطش يومًا رأيت عند ذاك أن تلك البئر،

التي سبق أن عرفتها، تفيض على الكون سناءً. وقد تسحر امرأة بعيدة خفية بيتًا بأجمعه. وهكذا تكون البئر كالحب ذات أثر بعيد ناءٍ.

وإذا رأيت الرمال، بدت لك لأول نظرة جدباء جرداء، حتى إذا أتى يوم خشيت فيه اقتراب القبائل الثائرة فإنك تستطيع عندئذٍ قراءة طيات مئزرها العظيم، ذلك لأن الغارة تُغيِّر وجه الرمال.

لقد قبلنا قواعد اللعبة وستشكلنا اللعبة على صورتها. ولن تظهر الصحراء خارجنا وإنما تبدو في نفوسنا. وإذا أردتَ أن تصل لها فلا تزر واحة ولكن اضرب في فيافيها باحثًا عن ينبوع تعبده.

(٢)

ولقد عرفت طعم الصحراء من أول رحلة لي، إذ سقطنا أنا و«ريجيل» و«جيوميه» قرب حصن نواكشوط. وكان ذلك المَرقَب منعزلًا عن الحياة كأنه جزيرة صغيرة تائهة في البحار. وكان يعيش فيه جاويش عجوز مع خمسة عشر سنغاليًّا. ورحب بنا كأننا رسل من السماء. وقال لنا وهو يبكي:

- إنها لنعمة أن أكلمكم. فأنتم أول من أرى من الناس منذ ستة أشهر. وأحيانًا يأتي الضابط الملازم وأحيانًا اليوزباشي وفي آخر مرة كان اليوزباشي.

كنا ما زلنا في دهشة وروعة. فعلى بُعد ساعتين من داكار، حيث كان يُعد لنا الطعام، انفجرت آلات الحركة وتغير مصيرنا وظهرنا فجأة لهذا الجاويش الباكي كأننا نفر من الجان.

- اشربوا، إني لسعيد أن أقدم لكم نبيذًا! تصوروا أنه لم يكن لديَّ نبيذ عند مرور اليوزباشي.

لقد قصصتُ ذلك في أحد كتبي ولكنه لم يكن قصة. كان حقيقة.

قال لنا:

- في المرة الأخيرة، لم أستطع أن أقرع الكأس. ولقد خجلت من ذلك لدرجة أني طلبت نقلي.

يقرع الكأس! يقرع الكأس مع ذلك الذي يقفز من أعلى هجينه وهو يتصبب عرقًا! كانت تلك اللحظة منتَظَرة منذ ستة أشهر وقد عاشوا ليروها. ومنذ شهر كانت الأسلحة تلمع والمَرقَب يُنظف من أسفله إلى أعلاه. ومنذ بضعة أيام أحسوا اقتراب اليوم المبارك فبدأوا يرقبون الأفق من

سطح البناء وهم لا يكلون؛ حتى يكشفوا ذلك الغبار الذي سيتشح به جند «أطار» الراكب.

ولكن النبيذ قد نفد، ولن يستطاع إقامة الاحتفال ولن تُقرع الكؤوس. وحينئذٍ يكتشف الجاويش أنه قد فقدَ شرفه.

ـ كم أود أن يحضر سريعًا. إني في انتظاره.

ـ وأين هو أيها الجاويش؟

أجاب الجاويش وهو يشير إلى الرمال قائلًا:

ـ لا أحد يدري، إن اليوزباشي في كل مكان!

وكانت حقيقية أيضًا تلك الليلة التي قضيناها على سقف الحصن ونحن نتكلم عن النجوم ولم يكن هناك شيء نرقبه سواها. كانت كاملة بقضِّها وقضيضها، نراها كما لو كنا في الطائرة، ولكنها كانت ثابتة.

في الطائرة، عندما يكون الليل فاتنًا، يُسلِّم الطيار نفسه للسير ولا يُمسي قائد الطائرة، وتنحني الطائرة شيئًا فشيئًا ذات الشمال ويظن أنها ما زالت أفقية حتى يكتشف قرية تحت الجناح الأيمن. ولكن ليس في الصحراء قرى. إذن هي قوارب صيد ولكن لا قوارب صيد في قلب الصحراء. فما هذا إذن؟ عندئذٍ يتبسم الطيار لخطئه، ويقوِّم الطائرة برفق. وحينئذٍ ترجع القرية إلى مكانها. نعم إنها قرية

ولكنها قريبة من النجوم. ولكن من أعلى هذا الحصن لا يُرى شيء إلا الصحراء المتجمدة وعليها أمواج الرمال، أمواج بلا حركة. والنجوم ثابتة. وكلمنا الجاويش عنها فقال:

ـ إني أعرف الجهات جيدًا. فإذا أنت اتجهت نحو هذا النجم وصلت تونس رأسًا!

ـ وهل أنت من تونس؟

ـ كلا، وإنما ابنة عمي من هناك.

ثم خيم علينا صمت طويل، ولكن الجاويش لم يستطع إخفاء شيء عنا فعاد يقول:

ـ سأذهب إلى تونس يومًا ما.

سيذهب إلى تونس ولكنه سيتبع طريقًا آخر غير طريق هذا النجم، اللهم إلا إذا نفد الماء وهو في رحلته فأسلمه ذلك إلى شاعرية الجفون، وعندئذٍ يختلط النجم وبنت العم وتونس، وعندئذٍ يبدأ ذلك السير الملهَم الذي يحسبه الجاحدون مؤلمًا.

ـ طلبت ذات مرة من اليوزباشي إذنًا بالذهاب إلى تونس لأرى ابنة عمي، فأجابني...

ـ ماذا أجابك؟

ـ أجابني: «العالم مليء ببنات العم»، ولما كانت داكار أقرب من تونس أرسلني إلى هناك.

ـ وهل كانت جميلة ابنة عمك؟

ـ ابنة العم التونسية؟ نعم بالتأكيد كانت شقراء.

ـ كلا. نقصد ابنة العم التي في داكار.

أيها الجاويش كم وددنا أن نعانقك لإجابتك الجريئة المختلطة بالغضب:

ـ لقد كانت زنجية.

ما الصحراء بالنسبة لك أيها الجاويش؟ لقد كانت قوة خارقة دائمة السير نحوك. لقد كانت أيضًا ما تحسه من جمال ابنة عمك على مدة خمسة آلاف كيلومتر في الرمال.

وما الصحراء بالنسبة لنا؟ إنها ما يولد في أنفسنا. إنها ما نتعلمه عن أنفسنا. ونحن أيضًا في تلك الليلة كنا مثلك، نعشق ابنة عم ونحب ضابطًا.

(٣)

تقع «بور-إتيين» على تخوم أراضٍ ثائرة، وهي لا تُعتبر مدينة، إذ لا تحوي إلا حصنًا ومظلة وكوخًا خشبيًّا ليؤوي الطيارين. وتحيط بها الصحراء الجدباء من كل مكان حتى إنها لا تُقهر برغم ندرة مواردها الحربية. فلا بد للهجوم عليها من اختراق منطقة من الرمال ومن اللهيب، ولذلك لا تصلها القوافل المعادية إلا بعد فناء قُوَّتها ونضوب مائها. ولكن يذكر الناس أن قافلة معادية قد سارت ذات يوم متجهة نحو «بور-إتيين». وفي كل مرة يزورنا فيها الضابط-المحافظ، ليتناول كوب شاي عندنا، يقص أسطورة تلك القافلة ويرسم سيرها على الخرائط وكأنه يحكي أسطورة أميرة جميلة. ولكن ما من قافلة معادية تصلنا؛ فإن الرمال تستنزفها كما تستنزف الماء ولذا أطلقنا عليها اسم «الغزوة الخيالية». وترانا نُبقي البنادق والخراطيش، التي توزعها الحكومة علينا في المساء، في صناديقها تحت أسِرتنا. وليس لنا عدوٌّ نحاربه سوى الصمت. ويحمينا، قبل كل شيء، فقرُنا وعوزُنا. وترى «لوكاس»، رئيس الميناء الجوي، مديرًا حاكيه ليل نهار فنسمع، في ذلك البُعد السحيق عن الحياة، لغةً كدنا أن ننساها، ويثير فينا ذلك حزنًا لا ندري له طعمًا ولا سببًا، حزنًا يحاكي العطش.

في تلك الليلة تعشينا في الحصن، وأرانا الضابط-المحافظ ما يسميه حديقته، وهي ثلاث ورقات خضراء تنمو في صندوق مليء بتربة أُرسلت له من فرنسا بعد أن قطعت أربعة آلاف كيلومتر. وملسنا بأصابعنا على تلك الأوراق الخضراء كما لو كانت جواهر. تلك هي الحديقة التي يسميها الضابط كذلك والتي تُنقل إلى الكهف في أسفل الحصن كلما هبت الرياح التي تجفف كل شيء.

وكنا نسكن على بُعد كيلومتر واحد من الحصن، وعدنا إلى مأوانا تحت ضياء القمر، بعد العشاء. وكان الرمل ورديًّا في نور القمر. وأحسسنا بفقرنا وعُرينا، ولكن ما قيمة ذلك؟ إن الرمل وردي، وصوت الحارس يرن فيعيد إلى العالم ما يثير الرحمة. والصحراء كلها ترتجف من ظلالنا وتتوجه إلينا متسائلة، ذلك لأن قافلة معادية كانت تسير.

وتجمعت في صوت الحارس كل أصوات الصحراء. ولم تعد الصحراء بيتًا خاويًا على عروشه وإنما أمست بيتًا مأهولًا. لقد سحرت هذه القافلة المعادية الليل والبيداء.

ولربما اعتقد الإنسان أنه في أمان، فإذا بالمرض والحوادث والقوافل المعادية والأخطار المهدِّدة تسير نحوه. فالمرء على هذه الأرض هدف للسهام ولا يدري أين الرماة. وها هو ذا الحارس السنغالي يُذكِّرنا بذلك.

وصحنا مجيبين الحارس بقوله:

ـ فرنسيون.

ومررنا أمام ذلك الملاك الأسود وعادت إلينا أنفاسنا. فأي نبل أثاره فينا ذلك الخطر... فمهما كان بعيدًا، ومهما كان بطيئًا، ومهما عاقته الرمال، فإنه قد غيَّر دنيانا وأعاد إلى هذه الصحراء عظمتها. وتلك القافلة العدوة السائرة في مكان ما والتي لن تصل أبدًا، تلك القافلة قد أضفت على الصحراء عظمتها وقداستها.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء وعاد «لوكاس» من محطة اللاسلكي فأخبرني أن طائرة داكار ستصل عند منتصف الليل. وكل شيء على ما يرام. وعلى هذا فسيمكن الانتهاء من نقل البريد إلى طائرتي بعد منتصف الليل بعشر دقائق، وعندئذٍ سأطير متجهًا شمالًا. ووقفت أحلق ذقني أمام مرآة مشقوقة. وكانت المنشفة حول رقبتي وكنت أخرج من وقت لآخر وأتطلع إلى الرمال العارية. وكان الجو رائعًا ولكن بدأت الرياح تخمد وعُدت إلى المرآة وأخذت في التفكير. إن الرياح إذا ساءت مدة طويلة ثم سكنت هكذا فجأة فإن ذلك يفسد الجو كله أحيانًا. وبدأت في لبس ملابسي وعقدت مصابيح الإنقاذ بمنطقتي وأخذت مقياس الارتفاع وأقلامي الرصاصية، وذهبت إلى «نيري»

الذي سيكون عامل اللاسلكي بطائرتي تلك الليلة، فوجدته يَحلق هو أيضًا وسألته عن الحال فقال لي:

ـ الحال طيبة الآن.

وتلك العملية الأولى هي أقل عمليات الطيران صعوبة. ثم سمعت طقطقة وكان ذلك صوت اصطدام فراشة بمصباحي. وهزَّ ذلك الصوت أوتار قلبي دون أن أدري السبب.

وخرجت مرة أخرى ونظرت فإذا بكل شيء صافٍ رائق. وكان الصمت يسود الصحراء كما يُخيم على منزل هادئ منظم. ولكن فراشة خضراء وجرادتين صدمت مصباحي فشعرت مرة أخرى بشعور غامض، قد يكون فرحًا وقد يكون خوفًا، ولكنه على كل حال إحساس آتٍ من قرارة نفسي، إحساس ما زال غامضًا ولكنه يوشك أن يبين. كان هناك شخص يكلمني من بعيد. فهل ذلك هو صوت الغريزة؟ وخرجت مرة أخرى فوجدت الرياح ساكنة تمامًا وما زال الجو منعشًا. ولكن كنت قد تلقيت إنذارًا. وتوقعت شيئًا وأظن أني فهمت ما سيحدث. فهل كنت على صواب؟ لم تعطني السماء ولا الرمال أي إشارة ولكن بعض الفراش كلمني.

وارتقيت كثيبًا وجلست ووجهي للمشرق. وقلت لنفسي:

«لو كنت على صواب فلن تتأخر الرياح». إذ عن أي شيء كان يبحث ذلك الفراش هنا على مدى مئات الكيلومترات من الواحات الداخلية؟

إن ألفاظًا ضئيلة تحملها الأمواج للشواطئ تدل على العاصفة الهوجاء التي تجتاح البحر. وهكذا دلتني تلك الحشرات أن عاصفة رملية كانت آتية من الشرق بعد أن أجدبت حقول النخيل البعيدة من فَراشها الأخضر وقد مسَّني زبدها فعلًا. وسارت ريح الشرق تحدوها العظمة لأن فيها امتحانًا للنفوس، ويحدوها الجلال لأن فيها تهديدًا للناس ولأنها تحوي عاصفة هوجاء. ولم يكد تنهُّدها يصلني حتى أحسست به، فأنا الشاطئ القصي الذي تمسُّه الأمواج. ولم يحدث أي شيء على بُعد عشرين مترًا خلفي إذ كان كل شيء ساكنًا. وشملني لهيب الريح مرة واحدة ولكني كنت أعرف أن الصحراء ستعاود التنفس وسترسل عما قريب تنهُّدًا ثانيًا وكنت واثقًا أنه لن تمر ثلاث دقائق حتى يضطرب خرطوم الهواء الذي يعلو مظلتنا ولن تمر عشر دقائق حتى تمتلئ السماء بالرمال. وسنطير عما قليل في هذا الجحيم، في لهيب الصحراء العائد.

ولكن ليس ذلك ما حرك نفسي. إن ما أفعمني مرحًا، هو

أني كدت أفهم لغة خفية، هو أني استطعت تتبع الأثر كرجل بدائي يحس المستقبل في نفسه بما يبدو فيها من خلجات، هو أني قرأت ذلك الغضب في جناحي فراشة.

(٤)

كنا هناك على مقربة من رجال القبائل العصاة. وكانوا يبرزون من غيابة تلك الأراضي المحرَّمة التي كنا نخترقها أثناء طيراننا، وكانوا يخاطرون أحيانًا بالذهاب إلى حصون «جوبي» أو «سيزنروس» لشراء سكر أو شاي ثم يعودون إلى التحصُّن بأسرارهم، وكنا نحاول أثناء مرورهم استئناس بعضهم.

وإذا كان الأمر أمر رؤساء ذوي نفوذ فإننا نحملهم أحيانًا، بموافقة إدارة الخطوط الجوية، في طائراتنا لنريهم الدنيا. كنا نريد أن نطفئ جذوة كبريائهم؛ لأن الاحتقار هو الذي كان يدفعهم إلى قتل أسراهم أكثر مما يدفعهم الكره. وعندما كانوا يلقوننا على تخوم الحصون، لم نكن نستحق منهم حتى السَّب، وإنما كانوا ينعطفون ويبصقون. وتلك الكبرياء كانت نتيجة توهمهم أنهم أقوياء. وكم منهم من قال لي عندما كان يعد جيشًا من ثلاثمائة مقاتل مسلحين

بالبنادق: «إنكم سعيدو الحظ في فرنسا لبُعدكم عنا مائة يوم...».

فكنا نتزههم. ولقد حدث أن ثلاثة منهم زاروا فرنسا المجهولة، وكانوا من ذلك النوع الذي صحبني بعض أفراده ذات يوم إلى السنغال، فبكوا لما رأوا الأشجار.

وعندما زرتهم في مخايمهم كانوا يشهدون حفلًا موسيقيًّا ترقص فيه نساء عاريات بين الزهور. فأولئك رجال لم يسبق لهم أن رأوا شجرة ولا نافورة ولا وردة، رجال لا يعرفون، إلا من القرآن، شيئًا عن البساتين التي تجري من تحتها الأنهار؛ إذ هم يصورون جنتهم كذلك، وذلك الفردوس بِحورِه العِين يناله المؤمن إذا مات في الصحراء برصاص كافر، بعد ثلاثين سنة من الشقاء. وهم يظنون الآن أن الله يخدعهم؛ لأنه لا يطلب من الفرنسيين، وقد وهبهم كل تلك الثروات، لا ضريبة العطش ولا ضريبة الموت. ولهذا ترى أولئك الرؤساء القدامى يحلمون الآن وينعمون النظر، وتراهم يذكرون الصحراء الجدباء الممتدة حول خيمهم، تلك الصحراء التي لا تجود عليهم إلا بمسرات تافهة، فهم الآن يرسلون أنفسهم على سجيتها للنجوى فتسمعهم يقولون: «إن إله الفرنسيين أكثر كرمًا لهم من إله البدو للبدو».

وقبل ذلك ببضعة أسابيع كانوا يُنزَّهون في مقاطعة «السافوا». فقادهم دليلهم أمام شلال جبلي كأنه عمود قائم دائم الزئير، وقال لهم:

ـ تذوقوا.

وكان ماءً حلوًا. ماء! كم من الأيام يقضيها المرء سائرًا ليصل أقرب بئر في الصحراء حتى إذا أتاها كان عليه أن يقضي ساعات طويلة ليرفع الرمال التي تملأها ليصل أخيرًا لطين مختلط ببول الجمال! في «رأس جوبي» وفي «سيزنروس» وفي «بور-إتيين»، لا يسأل أطفال البدو نقودًا، وإنما يحملون علبة طعام فارغة. ويسألون ماءً، فتسمعهم ينادون: «أعطني قليلًا من الماء».

إنه الماء الذي يوازي ثقله ذهبًا، إنه الماء الذي تكفي قطرة واحدة منه لتستجر من الرمال شرارة خضراء، هي شرارة العشب. وإذا نزل الغيث أرضًا سعت القبائل إليها وأصابت الحياةُ الصحراء... وذلك الماء الشحيح الذي لم تنزل منه قطرة في «بور-إتيين» منذ عشر سنوات، ذلك الماء يزأر الآن كأن خزانًا عظيمًا قد انفجر فأسال كل ما ادخره العالم من مياه. وقال لهم دليلهم:

ـ هيا بنا.

ولكنهم لم يتحركوا، وأجابوا:

ـ دعنا...

وبقوا صامتين يتطلعون في جدٌّ إلى هذا السر العظيم وكأن على رؤوسهم الطير. فذلك الذي كان يتفجر من أحشاء الجبل إنما هو الحياة، إنما هو دم الناس.

وما يسيل في لحظة واحدة كافٍ ليبعث الحياة في قوافل بأكملها، قوافل أفقدها العطشُ رشدَها فغاصت إلى الأبد في آزال المسارب والبحيرات المالحة. كان الله قد بدا لهم وما كان لبشر أن يوليه الأدبار. لقد فتح الله مستودعاته وأبدى قوته، وبقي رجال القبائل الثلاثة جامدين لا يتحركون. وقال لهم الدليل:

ـ ماذا ترون أكثر من ذلك؟ هيا بنا.

ـ يجب الانتظار.

ـ انتظار أي شيء؟

ـ انتظار النهاية.

كانوا يريدون أن يبقوا حتى يتعب الإله من حماقته، فسيستغفر سريعًا؛ إذ إنه ضنين بما لديه. فرد عليه الدليل قائلًا:

ـ ولكن هذا الماء يسيل منذ ألف سنة!

ولم يسألوا عن الشلال في ذلك المساء؛ فإنه يحسن بالمرء أن يسكت أحيانًا أمام بعض المعجزات. بل يحسن ألا يفكر المرء في ذلك كثيرًا وإلا فسينتهي إلى العجز عن الفهم، وإلا فسيشك في الله...

ـ إله الفرنسيين أترى...

إني أعرفهم جيدًا هؤلاء الأصدقاء المتوحشين. لقد تزعزعت عقائدهم، وأصبحوا على وشك الخضوع. فهم يأملون أن تموِّنهم السلطات الفرنسية بالشعير، وبأن تؤمِّنهم قواتنا الصحراوية. وفي الحق لو خضعوا فسيكسبون ماديًّا.

ولكن ثلاثتهم من نسل «المأمون»، أمير قبائل الترارزة (وأظن أني أخطئ في هذا الاسم).

ولقد عرفت ذلك «المأمون» عندما كان خاضعًا لنا، فكان يُستقبل في الحفلات الرسمية لما أداه من خدمات، وصار غنيًّا بفضل الحكام الفرنسيين، ومحترمًا من القبائل، ولم يكن يبدو أن شيئًا من المزايا ينقصه. ولكنه ذات ليلة قام، من دون أن تبدر منه بادرة تدل على ذلك، فذبح الضباط الذين كانوا يصحبونه في

الصحراء، واستولى على جِمالهم وبنادقهم وعاد إلى القبائل الثائرة.

ويسمونها «خيانة» تلك الثورات المفاجئة، وذلك الهرب الذي تمتزج فيه البطولة باليأس. هَرَبُ قائد أضحى منبوذًا في الصحراء. يسمونه «خيانة» ذلك المجد الذي سينطفئ عما قليل كسهمٍ ناري، أمام طلقات جُند «أطار» الراكب، ويدهش الناس من تلك النوبات الجنونية.

ولكن قصة «المأمون» هي بعينها قصة الكثيرين من العرب. كان «المأمون» يهرم، وعندما يهرم الإنسان يُسلم نفسه للتأمل. وهكذا اكتشف ذات مساء أنه قد خان إله الإسلام، وأنه قد دنَّس يده عندما وضعها في يد المسيحيين واتفق معهم اتفاقًا فقدَ به كل شيء.

وفي الحق، ما قيمة الشعير والسلام بالنسبة له؟ لقد كان محاربًا فهبط حتى أصبح راعيًا، وها هو ذا يذكر أنه قد سكن صحراء تكمن المخاطر في كل طية من طياتها، ويُرسَل فيها الجند الساهرون ليرقبوا الأعداء، صحراء تسمع فيها أخبار الأعداء فترتجف لها القلوب المتجمعة حول النيران الموقدة في الليل. وها هو ذا يذكر أنه تذوق شيئًا يحاكي ما يتذوقه البحَّار في لُجَّة البحر، طعمًا مَن تذوقه مرة لم يستطع نسيانه أبدًا.

ذكر ذلك ثم تأمل فألفى نفسه تائهًا بلا مجد في أرض عمَّها السلام وخلت من كل سحر وعظمة. وعندئذٍ فقط أضحت الصحراء صحراءَ حقًّا.

ولربما كان يجب أولئك الضباط الذين سيقتلهم، ولكن حبه لله يأتي في المحل الأول.

ـ عِم مساءً يا «مأمون».

ـ حفظك الله.

ثم تدثر الضباط بأغطيتهم وتمددوا على الرمل كأنهم على ظهر طَوف، ووجوههم إلى السماء. وطلعت النجوم جميعًا وهي تدور ببطء، وبدت السماء كأنها ساعة عظيمة تدل على الوقت. وها هو ذا القمر ينعطف نحو الرمال، يعيده الله الحكيم إلى العدم. وعما قليل سينام هؤلاء المسيحيون. بضع دقائق، ولن ينير الدنيا إلا النجوم. وعندئذٍ يكفي أن يُقتل هؤلاء المسيحيون النيام لكي تستردَّ القبائل مجدها الغابر، ولكي تعود ثانية تلك المطاردات التي تضفي، وحدها، على الرمال حياةً وسناءً، وبعد ثوانٍ سيبعث عالم جديد.

وذبح المأمون الضباط النائمين.

(٥)

دعاني اليوم في «جوبي» كمال وأخوه معين وشربت الشاي معهما في خيمتهما، وكان معين يصعِّد الطرْف فيَّ وهو صامت وقد أبقى خماره الأسود مرسلًا على شفتيه. وكان كمال هو الذي يكلمني فقط. وحياني قائلًا:

ـ خيمتي وجِمالي وسباياي وعبيدي كلها رهن أمرك.

وكان معين لا تفارقني نظراته، وانحنى على أخيه ملقيًا له ببضع كلمات ثم عاد إلى سكوته. فسألته عمَّ يقول فأجابني:

ـ إنه يقول: «سرق «بونافوس» ألف بعير من الرقيبات».

ولم أكن أعرف اليوزباشي «بونافوس» ضابط هجانة «أطار» ولكني كنت قد سمعت عن أسطورته بين رجال القبائل؛ فهم يتكلمون عنه بغضب ولكن كما يتكلمون عن قوة خارقة. فوجوده هناك قد جعل للصحراء قيمة. وها هو ذا يعود اليوم للظهور ولا أحد يدري كيف كان ذلك. برز اليوم وراء القبائل الثائرة المغيرة المتجهة نحو الجنوب وأخذ يسرق جمالهم بالمئات ويضطرهم إلى قتاله كي ينقذوا ثرواتهم التي كانوا يحسبونها في أمان. واليوم وقد أنقذ «أطار» بهذا الظهور الملائكي المفاجئ

وأرسى خيمته على هضبة صخرية، الآن وقد تم له هذا، فسيبقى قائمًا هناك كأنه رهينة جديرة أن تؤخذ. وإنه ليشع إشعاعًا يرغم القبائل أن تسير نحو سيفه.

وتطلع معين إليَّ بنظرة جامدة وواصل الكلام، فسألت عمَّ يقول فأجابني أخوه:

ـ يقول: «سنرحل غدًا لقتال «بونافوس» ولدينا ثلاثمائة بندقية».

لقد توقعت شيئًا عندما رأيت منذ ثلاثة أيام تلك الجمال تُقاد للسقيا، وتلك المشاورات وذلك الحماس، وكانوا كملاحين يهيئون فُلكًا خفيًّا، وكانت الرياح التي ستُسيِّره قد أخذت تهب فعلًا. وبفضل «بونافوس» أصبحت كل خطوة إلى الجنوب خطوة مفعمة بالمجد. ولم أعد أدري أيسيِّرهم الحب أم البغض.

وإنه لرائع حقًّا أن يكون للمرء عدو جميل كـ«بونافوس». فحيث يظهر، تطوي القبائل القريبة خيمها وتجمع عيسها وتفر مرتجفة من لقائه وجهًا لوجه، ولكن القبائل النائية يصيبها دوار كذلك الذي يصيب العشاق. وينتزع المرء نفسه من سلام الخيام ومن ضمات الحسان ومن النوم الهنيِّ، ويكتشف أن لا شيء في الدنيا يعادل ذلك الفرح الذي يستشعره، بعد شهرين من سير مُضنٍ إلى الجنوب،

وعطش محرق وانتظار مؤلم في الرياح الرملية، لا شيء يعدل ساعة الهجوم فجأة في الفجر على جُند «أطار» الراكب وذبح اليوزباشي إن أراد الله.

واعترف لي كمال بقوة «بونافوس».

إني أعرف الآن سِرهم. هم كمن يعشق امرأة فيحلم بوقع خطاها وهي خالية البال ويتقلب طيلة ليله وقد أمضته وأحرقته تلك النزهة التي رآها في حلمه، وهكذا تُعذِّب خطوات «بونافوس» النائية نفوس هؤلاء الرجال. فذلك المسيحي في ثياب البدو على رأس مائتين من قرصانه البدو، قد استثار القبائل ضده ونفذ في قلب البيداء الثائرة حيث يستطيع أقل رجل من رجاله، وقد تخلص من قيود الفرنسيين، أن يستيقظ من عبوديته وأن يقدمه ـ دون خشية العقاب ـ ضحية لإلهه على مائدة صخرية، حيث لا يصدهم إلا سحر عظمته وحيث يروعهم منه كل شيء حتى ضعفه. وها هو ذا يسير بينهم هذه الليلة وهم نيام. يسير ويسير خالي البال، فترنُّ خطواته حتى تصل إلى قلب البيداء.

وكان معين يفكر وما زال جامدًا في آخر الخيمة، وكأنه قاعدة تمثال من الجرانيت الأزرق لا يلمع فيه سوى عينيه وخنجره الفضي، ذلك الخنجر الذي لم يعد الآن لعبة. فيا له من تغيُّر

عظيم ذلك الذي طرأ عليه منذ أن انضم للقبائل الثائرة! إنه يحس الآن، كما لم يحس أبدًا، نبله العظيم. إنه يسحقني باحتقاره لأنه سيصعد نحو «بونافوس»، لأنه سيبدأ سيره في الفجر، يدفعه بُغضٌ له كل علامات الحب.

وانثنى معين مرة أخرى نحو أخيه وكلمه بصوت خافت، ثم رنا إليَّ ببصره. فسألت:

ـ ماذا يقول؟

ـ يقول إنه سيطلق النار عليك لو قابلك بعيدًا عن الحصن.

ـ لماذا؟

ـ يقول إنك تملك الطائرات وتملك اللاسلكي ولديك «بونافوس»، ولكنك لا تملك الحقيقة.

وبقي معين جامدًا في خماره الأزرق بطياته التي تحاكي طيات التماثيل، وهو يصوب نظره إليَّ.

ـ إنه يقول إنك تأكل الخضر كالماعز والخنزير كالخنازير. ونساؤكم لا حياء فيهن، يبدين وجوههن، ولقد رأى بعضهن. إنه يقول: «أنت لا تصلي أبدًا». إنه يقول: «ما جدوى طائراتك وجهازك اللاسلكي وضابطك «بونافوس»، ما جدواها كلها إذا كنت لا تملك الحقيقة؟».

وإني ليروعني ذلك البدوي الذي لا يحمي حريته؛ فالإنسان حر دائمًا في الصحراء، ولا يحمي ثروات بادية للعيان، فالصحراء عارية لا ثروة بها، ولكنه يحمي مُلكًا خفيًّا. وفي صمت الأمواج الرملية، يُسيِّر «بونافوس» جنده كقرصان قديم، وبفضله لم يعد ذلك المخيم في «رأس جوبي» مسكن رعاة متعطلين؛ فقد أقضَّت عاصفة «بونافوس» مضجعه، وبفضله حُزمت الخيام في المساء. وما أشد الصمت في الجنوب: إنه صمت «بونافوس»! وذلك الصياد القديم، معين، يُصغي له وهو يسير بين الرياح.

ولن يفرح أعداء «بونافوس» عندما يعود إلى فرنسا، وإنما سيبكونه كما لو كان رحيله قد حرم بيداءهم أحد قطبيها، وسلب حياتهم شيئًا من سحرها، وسيسألونني:

ـ لماذا رحل ضابطكم «بونافوس»؟

ـ لا أدري...

لقد خاطر بحياته ضدهم سنين عددًا، واتخذ لنفسه قواعد من قواعدهم ونام متوسدًا أحجارهم. وأثناء ذلك الطراد الدائم عرف مثلهم ليالي النجوم والرياح، وها هو ذا يدل برحيله على أنه لم يكن يقوم بدور أساسي في حياته؛ فإنه يغادر المكان بمرح وخفة. وهؤلاء البدو الذين يخلفهم

وراءه يقومون بأدوارهم فرادى، هؤلاء البدو، يفقدون الثقة في معنى من معاني الحياة التي لم تعد تغترق الناس حتى النهاية. وهم برغم ذلك يريدون أن يثقوا فيه فتراهم يقولون:

ـ سيرجع «بونافوس».

ـ لا أدري.

يظن رجال القبائل أنه عائد إليهم؛ فمسرَّات أوروبا لم تعد تكفيه وترضيه، كلا، ولا لعبة «البريدج» في المعسكر ولا الترقية ولا النساء. سيرجع «بونافوس» وقد ساورته عظمته المفقودة، سيرجع حيث تخفق القلوب لكل خطوة من خطواته كأنها خطوة نحو الحب. وربما ظن أنه لم يكن يحيا هنا إلا إحدى مخاطراته، ولكنه سيكتشف، على مضض، أنه امتلك الثروات الحقيقية هنا في البيداء حيث كان له سحر الرمال وعالم الليل والصمت، ووطن الرياح والنجوم. وإذا عاد «بونافوس» في يوم من الأيام فسينتشر خبر قدومه من أول ليلة حتى ليصل إلى كل الأراضي الثائرة. وسيعلم رجال القبائل أنه ينام في مكان ما من الصحراء بين المائتين من قراصنه. وعندئذٍ تُقاد العيس للسقيا في صمت وسكون، وتُجهز مؤن الشعير وتُفحص البنادق، ويدفع الرجال ذلك البغض أو ذلك الحب.

(٦)

ـ خبئني في طائرة إلى مراكش.

كان هذا التوسل يوجهه إليَّ، كل ليلة في «رأس جوبي»، عبد أسره رجال القبائل، وبعد هذا التوسل، وبعد أن يبذل ما في وسعه ليعيش، يجلس القرفصاء ويُعد لي الشاي ثم يهدأ لمدة يوم، لأنه اعترف بسِره إلى الطبيب الوحيد الذي يستطيع شفاءه، لأنه توسل إلى الإله الوحيد الذي يستطيع خلاصه. ثم ينحني على الغلاية فيجتر الصور الساذجة لحياته، ويسترجع أرض مراكش السوداء وبيوتها الوردية ويستعيد تلك النعم البسيطة التي حُرمها منذ أسره. ولم يحقد عليَّ أبدًا لسكوتي ولتأخري في منحه الحياة؛ فلم أكن، بالنسبة له، رجلًا شبيهًا به، ولكني كنت قوة يحاول تحريكها، كأني الريح الطيبة التي ستهب على مصيره ذات يوم.

ولكني أنا الطيار البسيط، رئيس مطار «رأس جوبي» لبضعة أشهر، أنا الذي لا أملك إلا كوخًا حقيرًا بجوار الحصن الإسباني وبه حوض وإبريق ماء أجاج وسرير صغير، كانت أوهامي عن نفسي أقل من ذلك بكثير. وقلت له:

ـ سأحاول ذلك يا عزيزي «بارك».

وكل الرقيق يُدعون «بارك»، وهكذا كان اسمه «بارك».
وبرغم أنه قضى في الأسر أربع سنين فإنه لم يكن قد استسلم بعد. فما زال يذكر أنه كان ملكًا في سالف الأيام.
وسألته:

ـ ما مهنتك في مراكش يا «بارك»؟

كانت له مهنة عظيمة في مراكش حيث ما زالت تعيش زوجه وأطفاله الثلاثة:

ـ كنت قائد قطعان، وكان اسمي «محمد»!

كان الرؤساء هناك يستدعونه ويقولون له: «عندي أبقار للبيع يا محمد. اذهب وهاتها من الجبل»، أو: «عندي ألف رأس من الغنم في السهل قُدها إلى المراعي العالية».

وكان «بارك» يسير مُسلحًا بصولجان من شجر الزيتون، وهو يسيطر على هذه الهجرة. فهو المسؤول الوحيد عن رعيته من النعاج. يبطئ خُطى السريع منها إذا كانت على وشك الولادة، ويحض الكسالى على النشاط، كان يسير والثقة والطاعة تحفان به. فهو وحده الذي يعلم إلى أي أراضٍ موعودة تسير الرعية، وهو وحده الذي يقرأ طريقه في النجوم، يثقله عِلمٌ لا تشاركه فيه رعيته، فهو يقرر بمفرده وبمحض حكمته ساعة الراحة وساعة السقيا.

ويبقى الليل قائمًا بين رعيته يتملكه العطف عليها وهو غارق في صوفها حتى ركبتيه. هو طبيبها ونبيُّها ومَلِكها، ولقد كان يصلي من أجلها.

وذات يوم مر به أعرابيون وقالوا له:

ـ تعالَ معنا نأتِ ببعض الحيوانات من الجنوب.

وسيَّروه طويلًا، وبعد ثلاثة أيام ألفى نفسه في طريق جبلي على تخوم الأراضي الثائرة، وعندها وضع أحدهم يده على كتفه ببساطة وأسماه «بارك» وباعه.

وعرفت رفيقًا آخرين عندما كنت أذهب كل يوم لتناول الشاي في إحدى الخيام. وكنت أتمدد عاري القدمين على بساط الصوف الغزير الذي يعتبر ترف البدوي، وهو يقيم مسكنه عليه لبضع ساعات. وكنت أتذوق ساعتئذٍ رحلة النهار. وفي الصحراء يحس المرء سير الزمن. ففي لهب الشمس يتقدم نحو المساء، نحو ذلك النسيم الذي يشمل المرء ويزيل عنه آثار العرق. وفي لهب الشمس يتقدم الإنسان والحيوان نحو مصير محتوم كالموت، يتقدمون نحو تلك المسقاة الكبرى. وهكذا لا تكون العطلة في الصحراء عبثًا. وكل نهار يبدو جميلًا كتلك الطرق الموصلة للبحر.

وكان أولئك الرقيق يدخلون الخيمة عندما يُخرج الرئيس المُسخِّن والغلاية والأكواب من صندوق الكنوز الثقيل الذي يحوي أشياء عجيبة. فيه أقفال بلا مفاتيح ومزاهر بلا زهور ومرايا زهيدة القيمة وأسلحة عتيقة، فإذا سقطت في الرمال ذكرت الإنسان بزبد السفن الغارقة.

وحينئذٍ يتقدم الرقيق في صمت، فيملأ المُسخِّن بأعشاب جافة وينفخ اللهب ثم يملأ الغلاية بالماء، ويستخدم عضلاته القادرة على اقتلاع أضخم الأشجار، في عمل تستطيع تأديته بنت صغيرة. وتراه هادئًا، فالحياة قد اغترقته، حياة تافهة تقتصر على تحضير الشاي والعناية بالهجين وتناول الطعام. وفي وقدة النهار يسير الناس نحو الليل، وتحت ثلج النجوم العارية يتمنون لظى النهار. إنها لسعيدة بلاد الشمال إذ تخلق لها الفصول في الصيف أسطورة الثلج، وفي الشتاء أسطورة الشمس. وتعيسة البلاد المدارية؛ إذ لا يتغير شيء تقريبًا في لظى حرِّها. ولكنها سعيدة أيضًا الصحراء، ففيها يدفع الجديدان الناس من أمل إلى أمل.

ويجلس الرقيق الأسود القرفصاء أمام باب الخيمة، ويتذوق أحيانًا نسيم المساء. ولم تعد تطفو الذكريات في جسم هذا الأسير، فهو لا يذكر إلا لمامًا ساعة اختطافه

والضربات التي كيلت له والأذرع التي ألقت به في ليل العبودية. إنه يغوص منذ تلك الساعة في غيابة نوم عجيب، وقد حُرم كالأعمى أنهار السنغال الهادئة ومدن الجنوب المغربي البيضاء. وحُرم كالأصم من الأصوات التي كانت أليفة لديه. وليس هذا الأسود بائسًا وإنما هو مريض؛ فلقد هبط ذات يوم في دائرة الحياة البدوية وارتبط بهجرات البدو، وأُوثِق طيلة الحياة بمساراتهم في الصحراء، فأي شيء بقي له الآن من ماضيه؟ ماذا بقي له من بيته ومن امرأته ومن أولاده، وقد أمسوا بالنسبة له موتى بين الموتى؟

أولئك الذين عاشوا طويلًا في حب عظيم ثم حُرموا ذلك الحب، تراهم يضجرون أحيانًا من عليائهم الفريدة فيهبطون مقتربين من الحياة ويسعدون بحب متواضع. إنهم يستعذبون التسليم والخضوع والسلام. وهكذا ترى الرقيق فخورًا بنار سيده.

وأحيانًا يقول السيد لرقيقه:

ـ خذ. هذا لك.

إنها الساعة التي يُحسن فيها السيد لعبده، ساعة المساء، حيث تولي كل متاعب النهار ونيرانه، ويدخل السيد ورقيقه جنبًا إلى جنب في نسيم الليل. ويهب السيدُ عبدَه كوب شاي. وترى العبد يُقبِّل قدمي سيده من أجل هذا الكوب،

ذلك لأن المعروف قد أثقل كواهله. إن العبد لا يوثق بالسلاسل أبدًا، فما هو في حاجة إليها. وما أعظم إخلاصه لسيده! لقد نسي الرقيق المَلِك الأسود الذي كان يستقر بين جنبيه، وأمسى أسيرًا سعيدًا.

ولكن سيأتي يوم يحرَّر فيه ذلك العبد، يوم يمسي عجوزًا لا يساوي ثمن مأكله أو ملبسه فتُمنح له حرية لا حدَّ لها. ويبقى ثلاثة أيام عارضًا نفسه من خيمة إلى خيمة، ولكن عبثًا، وفي نهاية اليوم الثالث ينام على الرمال. ولقد رأيت في «جوبي» أرقاء يموتون هكذا عرايا. وكان البدو يمرون بجوارهم وهم في حالة النزع ولكنهم لا يقسون عليهم، ويلعب الأطفال قرب هذه اللفاظة السوداء، ويجرون كل صباح ليروا إذا ما كانت بالعبد نسمة من الحياة، ولكنهم لا يسخرون من خادمهم القديم. وكل ذلك يتفق مع النظام الطبيعي لديهم. فكأن عملهم بمثابة القول له: «لقد أجهدت نفسك، فلك الآن الحق في النوم. اذهب لتنام». والعبد متمدد يشعر بالجوع، وجوعه ليس إلا دوارًا، ولكنه لا يشعر بالظلم وهذا وحده هو ما يعذب الناس. لقد كان يمتزج بالأرض شيئًا فشيئًا. أنضبت الشمس معينه وتلقته الأرض. ثلاثون سنة من العمل ثم ينال حقه في النوم وفي الأرض.

لم أسمع الأنين أو الشكوى مِن أول مَن قابلت من الرقيق. فما كان ليشكو من أحد. رأيت فيه نوعًا من الرضاء الغامض، رضاء الجبلي التائه، نفدت قواه ورقد في الثلج متدثرًا بأحلامه ومشتملًا بالجليد. لم يكن ألمه الذي عذبني، كلا، وما أظن أنه كان يتألم. وإنما بموت رجل يذهب عالَم. وكنت أسائل نفسي أي صور ولَّت مع هذا الرجل؟ وأي مزارع في السنغال وأي مدائن بيض في الجنوب المغربي غاصت شيئًا فشيئًا في النسيان. وما استطعت أن أعلم إذا كانت قد خبت هموم وضيعة في ذلك الجسد الأسود، كتحضير الشاي، وسقاية الحيوانات... وما استطعت أن أعلم إذا كانت قد نامت فيه نفس عبد رقيق، أم هل نشر الرجلَ فيضٌ من الذكريات فمات في عظمته الغابرة. كنت أشبِّه عظم جمجمته الصلد بصندوق الكنوز القديم، ولم أكن أدري أي حرائر ملونة، ولا أي صور من الحفلات، ولا أي بقايا عديمة الجدوى هنا في الصحراء، قد خرج من ذلك الصندوق الغارق. كان الصندوق أمامي مقفلًا وثقيلًا. ولم أكن أدري أي نصيب من الدنيا كان يذهب أثناء هذا النوم الخارق في الأيام الأخيرة، ولا أي نصيب من الدنيا كان يولي في هذا الضمير وفي هذا الجسد ساعة انطفائهما.

«كنت راعيًا وكنت أدعى «محمد»».

كان «بارك» أول أسير أسود رأيته يقاوم. ولم يكن بالهيِّن عليه أن يعتدي رجال القبائل على حريته، وأن يجعلوه في يوم واحد أكثر عراءً من وليد، ولكن هناك عواصف تعصف في ساعة واحدة بكل ثروات الإنسان. وإنما الأدهى من ذلك أنهم هددوه في شخصه. ولم يستسلم «بارك» على حين أن الكثير من الأسرى لو كانوا مكانه لتركوا ذلك الراعي الفقير المعنَّى طول العام ليكسب قوته، يموت في نفوسهم.

ولم يهنأ «بارك» بالعبودية كما يهنأ المرء بسعادة وضيعة بعد أن يملَّ الانتظار. ولم يرد أن تكون له مسرَّات العبيد التي تتوقف على فضل سادتهم. واحتفظ لمحمد الغائب بذلك المنزل الذي كان يسكنه محمد في حنايا صدره. منزل يشيع الحزن فيه، لأنه منزل خالٍ، ولكن لن يسكنه أحد سواه. كان «بارك» شبيهًا بذلك الحارس الذي هرم وهو باقٍ في أعشاب المسالك، وفي ضجر الصمت، يفنى إخلاصًا.

لم يكن يقول: «أنا محمد بن الحسين»، ولكن: «كنتُ أدعى «محمد»». كان يحلم باليوم الذي يُبعث فيه ذلك الشخص المنسي فيطرد صورة ذلك العبد من نفسه. وكانت تعود

له أحيانًا في هدأة الليل كل ذكرياته كاملة كأنها إحدى أغنيات الطفولة. وقصَّ علينا المترجم الأعرابي أنه كان يتكلم أثناء نومه عن مراكش ويبكي. وما من أحد يتخلص في وحدته من تلك الذكريات. لقد استيقظ الإنسان الحر وتمطَّى وبحث إلى جواره عن امرأته في هذه البيداء التي لا تقترب فيها امرأة من «بارك»، وتسمَّع إلى خرير الماء هنا حيث لم يجد ماءً أبدًا. وظن «بارك»، وهو مقفل العينين، أنه يقطن بيتًا تحت نجم ثابت، هنا حيث ينزل الناس بيوتًا من الوبر وحيث يسيرون مع الرياح. وأتاني «بارك» مُحملًا بهذه الذكريات القديمة الحبيبة وقد بُعثت فيه بعثًا معجزًا كما لو كان قطبها قد اقترب. كان يود أن يقول لي إنه متأهب، وإن كل عواطفه متأهبة، ولم يكن ينقصه إلا العودة لينثرها على من يشاء. وكان يظن أن إشارةً مني تكفي لذلك. كان «بارك» يبتسم ويدلني على الحيلة ولم أكن قد فكرت فيها بعد: «غدًا يسافر البريد. خبئني في الطائرة إلى أغادير». يا لك من مسكين يا عزيزي «بارك»!

كيف نستطيع مساعدتك على الهرب ونحن هنا في أراضي العصاة الثائرين؟ لو فعلنا ذلك لانتقم رجال القبائل منا في اليوم التالي أشنع انتقام لهذه السرقة ولهذه الإهانة. وكنت قد حاولت شراءه بمعاونة ميكانيكيِّي المطار: «لوبرج»

و«مارشال» و«أبجرال»، ولكن رجال القبائل لا يلقون كل يوم أوروبيين مثلنا يبحثون عن شراء رقيق، ولذلك أرادوا أن يستغلوا هذا الأمر.

ـ ثمنه عشرون ألفًا من الفرنكات.

ـ أتسخر منا؟

ـ انظر إلى ذراعيه القويتين...

ومرت شهور في هذه المساومات.

وأخيرًا انخفض ما يطلبه رجال القبائل، فرأيت نفسي قادرًا على شراء «بارك»، وذلك بمعاونة بعض أصدقائي بفرنسا، وكنت قد كتبت لهم طالبًا معاونتهم.

وكانت مفاوضات رائعة استمرت ثمانية أيام. وكنا نجلس في حلقة على الرمال، أنا وخمسة عشر رجلًا من القبائل. وكان يساعدني سرًّا لصٌّ يدعى «زين ولد الرهطاري» وهو من أصدقاء المالك وأصدقائي. وقال له بناءً على نصائحي:

ـ بِعه فإنك ستفقده. إنه مريض ولو أن المرض لا يظهر عليه الآن لأنه مستقر في أحشائه، ولكن سيأتي يوم يبرز فيه. بِعْهُ حالًا للفرنسي.

وكنت قد وعدت لصًا آخر يدعى «راجي» بسمسرة أعطيها له لو ساعدني على إتمام الصفقة. وكان «راجي» يحاول خديعة المالك فيقول له:

ـ ستستطيع بهذه النقود أن تشتري جِمالًا وأسلحة وذخيرة، وهكذا تستطيع تسيير قافلة مقاتلة تحارب بها الفرنسيين، وتستطيع أن تجلب من «أطار» أربعة أو خمسة من الرقيق الجدد. تخلص من هذا الرقيق العجوز.

وباعوني «بارك». وقفلت عليه باب الكوخ بالمفتاح، إذ لو خرج قبل مرور الطائرة لاختطفه رجال القبائل وباعوه في جهة أخرى.

ولكني حررته من العبودية. وكان حفلًا جميلًا. وأتى الشيخ، وسيد «بارك» السابق، وإبراهيم قائد «جوبي»، وعانقه بحرارة هؤلاء القرصان الثلاثة ـ الذين لو قابلوه في الحصن لذبحوه ليسخروا مني ـ ثم وقَّعوا عقدًا رسميًا. وقالوا له:

ـ أنت الآن ابننا.

وكان يُعتبر ابني أيضًا حسب القانون.

وعانق «بارك» كل آبائه.

وعاش في كوخنا سجينًا مُنعَّمًا حتى ساعة الرحيل. وكان

يجعلنا نقصُّ عليه كل يوم عشرين مرة، كيف ستكون رحلته هيِّنة. سيهبط في أغادير وتُعطى له تذكرة سفر بالسيارة من هناك حتى مراكش. وكان «بارك» يُقلِّد الرجل الحر كما يُقلِّد طفل أحد المستكشفين. لقد ملأ عقله ذلك الرحيل إلى الحياة، وتلك السيارة، وجماهير الناس، وتلك المدن التي كان يوشك أن يعود لرؤيتها.

وأعطاني «لوبرج» ألفًا من الفرنكات باسمه واسم «مارشال» و«أبجرال»، لنسلمها لـ«بارك» حتى لا يموت جوعًا عند وصوله، وحتى يستطيع أن يعيش إلى أن يجد عملًا.

وفكرت في أولئك السيدات العجائز القائمات بأعمال خيرية واللاتي يتبرعن بعشرين من الفرنكات ويُصررن على أن يُشكرن، فكرت فيهن وأنا أرى عُمال طائرات، كـ«لوبرج» و«مارشال» و«أبجرال»، يتبرعون بألف من الفرنكات ولا يعتقدون أنهم يقومون بعمل خيري ولا يطلبون شُكرانًا على صنيعهم. ولم يكن عملهم هذا بدافع الرحمة كأولئك السيدات العجائز اللاتي يطمعن في السعادة. وإنما كان أولئك الرجال يساهمون في إرجاع الكرامة الإنسانية لإنسان. وكانوا يعلمون تمام العلم، كما كنت أعلم أنا أيضًا، أن البؤس سيكون أول

صديق وفيٍّ يلقاه «بارك»، بعد أن يذهب منه سُكْر العودة. وكانوا يعلمون أنه، قبل ثلاثة أشهر، سيشقى في اقتلاع أخشاب السكك الحديدية. وسيكون أقل سعادة مما كان هنا في الصحراء. ولكن كان له الحق أن يكون بين أفراد عائلته.

ـ هيا بنا يا عزيزي «بارك»، اذهب وكن إنسانًا.

كانت الطائرة تنتفض استعدادًا للرحيل، وانحنى «بارك» للمرة الأخيرة نحو تلك الوحشة التي تشمل «رأس جوبي»، وكان قد تجمَّع أمام الطائرة مائتان من رجال القبائل ليروا كيف تكون طلعة عبد على أبواب الحياة. ولو تعطلت الطائرة بعد ذلك لاستولى عليه أولئك الرجال مرة أخرى.

وكنا نودِّع وليدنا البالغ من العمر خمسين عامًا، وكنا مضطرين شيئًا ما ونحن ندفع به لصروف الدنيا. وقلنا له:

ـ وداعًا يا «بارك».

ـ كلا.

ـ ماذا تعني بقولك «كلا»؟

ـ كلا، لست «بارك». أنا محمد بن الحسين.

وأتتنا أخباره لآخر مرة عن طريق عبد الله، العربي الذي ساعد «بارك» في أغادير بناء على طلبنا.

كانت السيارة ستغادر المدينة في المساء، وكان لدى «بارك» نهار كامل. وتجوَّل بادئ الأمر طويلًا في تلك المدينة الصغيرة حتى إن عبد الله أحس قلقه ورقَّ لحاله فسأله:

ـ ماذا في الأمر؟

ـ لا شيء...

كان «بارك» قد ألفى نفسه فجأة في لُجَّة الحرية، ولذا لم يكن قد استشعر بعدُ أنه بُعث. نعم لقد أحس السعادة ولكن الفرق قليل بين «بارك» الأمس و«بارك» اليوم ما خلا تلك السعادة. ولكنه الآن أصبح يشاطر الآخرين هذه الشمس ويساويهم في تمتعه بها وفي حقِّه في الجلوس تحت عريشة ذلك المقهى العربي. ولقد جلس هناك وطلب شايًا له ولعبد الله. وكان ذلك أول علامة من علامات سيادته. وكانت قدرته جديرة أن تُغير هيئته فتجعل منه خلقًا آخر. ولكن الخادم قدَّم له الشاي بلا دهشة كما لو كان يقوم بعمل عادي، فلم يكن يحس وهو يسكب الشاي أنه يُحيي رجلًا حرًّا. وقال «بارك» لزميله:

ـ فلنذهب إلى مكان آخر.

وصعدا إلى القصبة التي تشرف على أغادير.

أتت إليهما الراقصات وأبدين عطفًا عظيمًا حتى خُيل لـ«بارك» أنه سيحيا حياة أخرى. كُنَّ يستقبلنه بترحاب في حياته الجديدة من دون أن يدرين ذلك. وأخذن بيده وقدَّمن له الشاي بظُرف وعطف، ولكن كما لو كُنَّ يقدمنه لشخصٍ عادي. وأراد «بارك» أن يقصَّ قصة بعثه فتضاحكن بود وبَدَون مسرورات لسروره. وأراد أن يثير عجبهن وإعجابهن فقال:

ـ أنا محمد بن الحسين.

ولكن ذلك لم يدهشهنَّ، فلكل الناس أسماء، وكثير منهم يأتي من بلاد نائية مثله.

وأخذه عبد الله للمدينة، وطافا معًا أمام حوانيت اليهود، وتطلع إلى البحر وفكر أنه قادر على أن يسير كما يشاء في أي اتجاه، وأنه حر... ولكن تلك الحرية بدت له مُرة المذاق، فقد كشفت لعينيه إلى أي حد كانت تنقصه الروابط التي تربطه بالدنيا.

وعندئذٍ مرَّ طفل فربت «بارك» على خده بحنو وتبسَّم الطفل، ولم يكن ابن سيد يتملقه، ولكنه كان طفلًا ضعيفًا

وهبه «بارك» عطفه فتبسم له الطفل. وأيقظ ذلك «بارك» فبدا لنفسه أكثر أهمية على الأرض لأن طفلًا ضعيفًا تبسم له. وبدأ يدرك شيئًا ما، وسار بخطوات واسعة فسأله زميله عبد الله:

ـ عمَّ تبحث؟

فأجاب «بارك»:

ـ لا شيء.

ولكنه لما رأى جماعة من الأطفال في منعطف الطريق توقف. وصعَّد الطرْف فيهم وهو صامت ثم انثنى نحو حوانيت اليهود وعاد مُحملًا بالهدايا. فثار عليه عبد الله وقال له:

ـ أيها الأحمق. احتفظ بنقودك!

ولكن «بارك» لم يعد يستمع إلى شيء. وأشار إلى الأطفال بجد فارتفعت نحوه الأكف الصغار وامتدت إلى اللعب والأساور والخفاف المُخيَّطة بالذهب. وكان كل طفل إذا ما أخذ لعبته يفر كالمتوحش.

ولما ترامى الخبر إلى بقية الأطفال بأغادير سارعوا نحوه وألبسهم «بارك» النعال المُخيَّطة بالذهب. وبلغت الإشاعات بعض الأطفال في ضواحي أغادير. فنهضوا

وساروا متصايحين نحو ذلك الإله الرب الأسود. وتعلقوا بثيابه القديمة، ثياب الرقيق، وكلهم يطلب ما يخصه. وهكذا كان «بارك» يُبدد كل ما يملك. فظن عبد الله أنه جُن من الفرح. ولكني أعتقد أن الأمر لم يكن رغبة من جانب «بارك» في أن يجعل الآخرين يشاركونه فرحه الذي لا حد له.

كان حرًّا، فكانت له كل النعم الضرورية، وله الحق أن يجعل الآخرين يحبونه، وله الحق أن يسير نحو الشمال أو نحو الجنوب، وله الحق أن يعمل ليكسب عيشه. فما جدوى تلك النقود إذن؟ ما جدواها وهو يحس في نفسه نقصًا قويًّا؟ يحس حاجة قوية لأن يكون رجلًا بين الرجال تربطه بالبشر تلك الوشائج التي تصل الإنسان بالإنسان. لقد أبدت راقصات أغادير عطفًا عليه ولكنه خرج من لدنهنَّ كما دخل بكل سهولة، إذ لم يكنَّ في حاجة إليه. وذلك الخادم في المقهى العربي، وأولئك المارة في الشوارع، كلهم كان يحترم فيه الرجل الحر ويشاركه الحياة ويساويه في التمتع بها، ولكن ما من شخص أبدى أنه في حاجة إليه. كان حرًّا حرية لا حد لها حتى إنه لم يكن يشعر بثقله على الأرض. كان ينقصه عبء تلك العلاقات الإنسانية التي

تعوق سير الإنسان، كانت تنقصه تلك الدموع وذلك الوداع والعتاب والمرح، وكل ما يبدي الإنسان عطفه عليه وكل ما يبغضه كلما همَّ بحركة. كانت تعوزه تلك الروابط التي تثبته بالآخرين وتجعله ثقيلًا ثم إذا بآلاف الآمال تثقله مرة واحدة...

وبدأ عهد «بارك» في الحياة، في مجد تلك الشمس الآفلة وبين ذلك النسيم الذي طالما تمناه وكان هناءه الوحيد ومأواه الفريد. ولما دنت ساعة الرحيل تقدم «بارك» وهو غارق في لُجَّة من الأطفال كما كان يغرق في سالف الأيام بين نعاجه، تقدم شاقًّا أول طريق له في الدنيا. ولربما عاد غدًا إلى البؤس بين أفراد عائلته، ولربما أصبح مسؤولًا عن حياة عدد من الناس لا تستطيع تحمُّلَهم ذراعاه الفانيتان. ولكنه قد بدأ يشعر بثقله الحقيقي. كان كملاك بالغِ الخفة عاجز عن الحياة بين البشر، فخاط رصاصًا ثقيلًا بمنطقته، وهكذا سار «بارك» بخطوات ثقيلة، إذ كان يجذبه نحو الأرض عديد من الأطفال، وهم يطالبونه بالخِفاف الذهبية.

(٧)

هذه هي الصحراء. تجعل قواعد الحياة المقدسة من رمالها عالمًا. ففي الصحراء التي يحسبها المرء قاعًا صفصفًا، تُمثِّل رواية خفية تهز مشاعر الناس. وليست الحياة الحقة، في الصحراء، هجرة قبائل سعيًا وراء المراعي، ولكنها جهاد يُبذل. وما أعظم الفرق بين نوع الرمال في الأراضي الخاضعة ونوع الرمال في الأراضي الثائرة! أوَليس الأمر كذلك بالنسبة لكل الناس؟ فهذه الصحراء الثائرة التي استحالت شيئًا آخر، هذه الصحراء تُذكرني بتلك الحديقة المعتمة المُذهَّبة التي كانت تملأها مخيلاتنا بآلاف الآلهة فتجعل منها عالمًا لا حد له، عالمًا تخلقه في تلك المساحة الصغيرة التي لم نعرفها بأجمعها ولم نُنقِّب في كل جنباتها. كنا نصنع حضارة مغلقة يصبح فيها لوقع خطواتنا وللأشياء المحيطة بنا معنى لا نجده في حضارة أخرى. والآن أصبحنا رجالًا نعيش في ظل قوانين أخرى، فماذا بقي لنا من تلك الحديقة المفعمة بظلال الطفولة؟ ماذا بقي من تلك الحديقة المسحورة، الباردة، المحرِقة، التي يعود إليها المرء الآن فيسير بها يحدوه نوع من اليأس وهو يمر حذاء ذلك الجدار المعتم، ويعجب كيف كان هذا المكان الضيق يتسع لذلك العالم اللانهائي؟ وعندئذٍ نفهم أننا لن نرجع

ثانيةً إلى ذلك العالم اللانهائي، لأننا يجب أن نعود إلى ألعابنا لا إلى حديقتنا إن شئنا العودة إليه.

ولكن لم تعد هناك الآن أراضٍ ثائرة ولم يعد هناك سر غامض في «رأس جوبي»، أو «سيزنروس»، أو «بورتو كانصادو»، أو الساقية الحمراء، أو الدروة، أو السمارة، فقد خبت الآفاق التي كنا نجري نحوها الواحد تلو الآخر، كتلك الحشرات التي تفقد ألوانها إذ ما وقعت في شرك الأيدي. ولكن ذلك الذي كان يطاردها لم يكن ألعوبة في يد الوهم. ونحن أيضًا لم نكن مخطئين عندما كنا نجري نحو تلك الاكتشافات. كما لم يكن سلطان «ألف ليلة وليلة» مخطئًا إذ كان يبحث عن مادة لطيفة حتى إن أسيراته الجميلات كان ينطفئ سراجهنَّ في الفجر بين ذراعيه، وقد فقدن أثمن ما فيهن وهو لم يكد يمسسهنَّ. لقد تغذينا بسحر الرمال، وربما أتى في قادم الأيام من يحفر آبار البترول فيها ومن يثرى من التجارة. ولكنه سيأتي بعد فوات الأوان، لأن غابات النخيل وثرى القواقع البكر قد وهبتنا ثمن ما فيها، ولم يكن لكل تلك الأشياء إلا ساعة حماس واحدة، وقد عرفناها نحن وعشناها.

* * *

الصحراء؟ لقد هُيئ لي ذات يوم أن أمسها بقلبي. ففي أثناء رحلة إلى الهند الصينية عام ١٩٣٥ كنت أطير في سماء مصر على تخوم ليبيا، ووقعت في الرمال كما يقع المرء في شَرك. وظننت أني مائتٌ. وهاكَ القصة.

الفصل السابع

في قلب الصحراء

(١)

عندما وصلت إلى البحر المتوسط قابلت سُحبًا منخفضة فهبطت إلى ارتفاع عشرين مترًا، فإذا بوابل المطر يتكسر على حاجز الهواء (في مقدَّم الطائرة)، وبدا لي البحر كأنه يرسل دخانًا، فجاهدت جهادًا عظيمًا لأرى أي شيء حتى لا أصطدم بسارية مركب.

وأخذ الميكانيكي، «أندريه بريفو»، يشعل لي السجائر. ثم طلبت منه قهوة فاختفى في مؤخرة الطائرة وعاد ومعه «الترموس» فأخذت أحتسي القهوة وأضغط من وقت لآخر على مقبض الغاز لأحفظ سرعة دوران المروحة. ثم ألقيت نظرة سريعة على الميناءات فوجدت كل إبرة في

مكانها وكلها تسير سيرًا حسنًا. وألقيت نظرة خاطفة على البحر تحت ذلك المطر، فرأيت أبخرة تتصاعد منه كما لو كانت تتصاعد من حوض ماء ساخن. ولو كنت في طائرة مائية لأسفت لأن البحر يبدو كأنه حفرة عميقة، فكيف يكون الأمر وأنا في طائرة عادية ولن أستطيع الهبوط هنا بأي حال، ولقد أحسست عندئذٍ أمانًا مستحيلًا لا أدري له سببًا. فالبحر جزء من دنيا أخرى غير دنياي، والعطل هنا لا يتعلق بي ولا يهددني، فأنا في هذه الطائرة لم أُعدَّ لمواجهة البحر.

وبعد ساعة ونصف هدأ المطر وبقيت السحب منخفضة ولكن الضوء أخذ يخترقها كأنه بسمة عظيمة. وتأملت بإعجاب هذا التهيؤ البطيء للجو الجميل. وأحسست فوقي شيئًا أبيض كالقطن. ثم انعطفت لأتفادى عاصفة هوائية، إذ لم يكن من الضروري أن أخترقها، وإذا بي أرى فجأة أول فُرجة في السحاب...

وكنت قد شعرت بها قبل أن أراها إذ لمحت أمامي خيطًا في لون المراعي، كأنه الواحة، خيطًا ناصع الخضرة غزيرها يشبه حقول الشعير التي كان يخفق قلبي لمرآها في الجنوب المغربي عندما كنت أعود من السنغال بعد أن أطير ثلاثة آلاف كيلومتر فوق الرمال. وهنا أيضًا أحسست

أني قد وصلت مكانًا مأهولًا وشعرت بمرح خفيف، فاستدرت نحو «بريفو» وقلت له:

ـ هل انتهى كل شيء؟ كيف الحال...

ـ الحال على ما يرام...

وهبطنا تونس ووقَّعت على الأوراق أثناء ملء الخزانات بالوقود ثم غادرت المكتب، فإذا بي أسمع صوتًا يحاكي صوت شيء يغور في الماء. ضجة خرساء بلا صدى. وتذكرت في الحال أنه قد سبق لي سماع مثل تلك الضجة وكانت انفجارًا في حظيرة سيارات أودى بحياة رجلين. فاستدرت نحو الطريق المحاذي للمطار ورأيت سحابة من الغبار. لقد اصطدمت عربتان وهما تسيران بسرعة فائقة فتوقفتا مرة واحدة كأنهما قد وقعتا في الثلج. وجرى نحوهما بعض الناس وجرى الآخر نحونا وهم يصيحون:

ـ تكلموا بالتلفون... نادوا طبيبًا... إصابة في الرأس...

وشعرت بانقباض في قلبي، فها هو ذا القدر قد أصابت سهامه، في ضوء المساء الهادئ، جمالًا أو ذكاءً أو حياةً... وهكذا يسير القرصان في الصحراء، لا يُسمع وقع أقدامهم على الرمال. كان في مخايمهم ضجة قصيرة الأمد يسمعها المرء كلما استعدوا لغزوة. ثم يسكن كل شيء في ذلك

الجو المُذهَّب. في سلام يحاكي هذا السلام وسكون كهذا السكون... ثم تكلم شخص بجواري عن كسر في الجمجمة ولم أكن أريد معرفة شيء عن تلك الجمجمة الخامدة الدامية، فقفلت راجعًا إلى الطائرة ولكن بقي في قلبي شعور بالتهديد. وعما قليل سأسمع ضجة كهذه الضجة عندما أصطدم بالهضبة السوداء وأنا طائر بسرعة مائتين وستين كيلومترًا في الساعة. سأسمع ضجة القدر الذي كان ينتظرنا في الميعاد.

والآن فلنرحل إلى بنغازي...

(٢)

فلنرحل، وما زال في النهار ساعتان. وخلعت منظاري الأسود عندما وصلت طرابلس. وأخذت الرمال تبدو كالذهب. يا إلهي كم هذه الدنيا صحراء! هأنذا أشعر مرة أخرى أن الأنهار والظلال ومساكن الناس إنما يرجع وجودها إلى صدفة سعيدة. ويا له من نصيب عظيم نصيب الصخور والرمال!

ولكن كل ذلك غريب عني، فأنا أعيش في عالم الطيران، وأشعر بهبوط الليل حيث يعتكف المرء كأنه في معبد،

حيث يعتكف في صلاة ذات مراسم لا بد منها، ولا معين له في هذه الصلاة ولا ظهير. وأخذ كل ذلك العالم الجاحد في الاختفاء وسيذهب تمامًا عما قليل. وما زالت كل المناظر الطبيعية أمامي مشتملة بضوء شاحب ولكن شيئًا ما بدأ يتبخر منها. وأنا لا أعرف شيئًا يساوي هذه الساعة، وأؤكد أنه ما من شيء يساويها. وإنهم ليفهمونني تمامًا أولئك الذين قهرهم ذلك الحب الذي لا يُعلل، أولئك الذين قهرهم حُبُّ الطيران.

وهأنذا أغادر الشمس شيئًا فشيئًا وأترك هذه المساحات الشاسعة المذهبة التي كانت ستحسن استقبالي لو تعطلت الطائرة، وأودع تلك المعالم التي كانت ستهديني سواء السبيل، وأخلف ورائي جنبات الجبال المنعكسة على صفحة السماء والتي كانت ستحميني من الأخطار، وأدخل في الليل وأخوض فيه ولم يعد معي أحد سوى النجوم...

وتحتضر الدنيا طويلًا، ويدبر الضياء شيئًا فشيئًا، وتختلط الأرض بالسماء قليلًا قليلًا، وتصعد هذه الأرض، وتبدو كالبخار المنتشر، وترتجف النجوم الأولى على صفحة السماء كأنها تسبح في ماء أخضر، ولا بد من الانتظار طويلًا حتى تمسي الشهب جامدة كالماس. ولا بد لي

من أن أنتظر طويلًا حتى أشاهد جريانها الصامت. وطالما رأيت الشرر يتناثر في بعض الليالي ويعدو حتى كان يُخيل إليَّ أن ريحًا صرصرًا هبت على النجوم.

وفحص «بريفو» المصابيح الثابتة ومصابيح الإنقاذ. وغطينا الأنابيب بورق أحمر، وطلبت إلى «بريفو» أن يضيف طبقة أخرى من الورق. ما زال الضياء منتشرًا. ولربما ألقى ستارًا على صورة الدنيا الشاحبة. ولربما حطم تلك الطبقة اللينة التي تحيط بالأشياء في الليل. لقد جنَّ الليل ولكنه لم يمس بعد ذلك الليل الحقيقي، إذ ما برح الهلال منيرًا. وغاب «بريفو» في مؤخرة الطائرة وعاد ومعه شطيرة وأخذت آكل عنقودًا من العنب. ولم أكن جوعان ولا عطشان. ولم أكن أشعر بأي تعب. وبدا لي أني قادر على مواصلة الطيران عشر سنين سويًا.

وغاب القمر.

وأعلمتنا المحطة اللاسلكية بأننا قد وصلنا بنغازي. وكانت تلك المدينة مستقرة في غيابة ظلمة حالكة لا يزينها أي ضياء. ثم لمحت المدينة. وبينما أنا أبحث عن المهبط إذا بالأنوار الحمراء (التي تدل على الخطر) توقد وترسم مثلثًا أسود على الأرض. وبدأت أستدير. وصعد ضوء أحد الفنارات نحو السماء كأنه نافورة تقذف اللهيب، ثم دار

ورسم على الأرض طريقًا ذهبيًّا. واستدرت مرة أخرى لأتبين العقبات وكانت المعدات الليلية لذلك المطار غاية في الإبداع، ثم قللت السرعة وبدأت أهبط وكأني أغور في مياه سوداء.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء بالتوقيت المحلي عندما هبطت المطار. وسرت متجهًا نحو الفنار، وكان الضباط والجنود ـ وهم من أكثر الناس أدبًا ـ يمرون من الظلام إلى ضوء الفنار الشديد ثم يختفون في الظلام. وأخذوا أوراقي وبدأ العمال يملأون الخزانات بالوقود. وبعد عشرين دقيقة كان كل شيء قد تم. وقالوا لي:

ـ أدر طائرتك ثم طِر فوقنا وإلا فلن نعرف إذا كان رحيلك قد تم على ما يرام.

والآن فلنرحل.

هأنذا أسير على ذلك الطريق المُذهَّب نحو منفذ لا عقبات فيه. وطارت طائرتي ـ وهي من طراز «سيمون» ـ قبل أن أصل إلى نهاية المكان المخصص للطيران، وتبعني نور الفنار فضايقني وأنا أريد أن أستدير، وأخيرًا تركني، إذ أحس القوم أن الضياء قد بهرني، ثم رجعت في اتجاه عمودي وعندئذٍ أصابني الفنار مرة أخرى ولكنه ما كاد يلمسني حتى بعُد عني وأدار خرطومه الذهبي إلى ناحية

أخرى، وشعرت أن وراء تلك المناورات تحية عظيمة لي. ثم استدرت نحو الصحراء.

وأنبأتني الأرصاد الجوية من باريس وتونس وبنغازي، أن رياحًا خلفية قد أخذت في الهبوط بسرعة تتراوح بين ثلاثين وأربعين كيلومترًا. وبدأت أحسب ما ستستغرقه الرحلة على أساس أني أطير بمعدل ثلاثمائة كيلومتر في الساعة. واتجهت نحو منتصف المسافة بين الإسكندرية والقاهرة حتى أستطيع تجنب المناطق الساحلية المحرَّمة وحتى أستدل عن يميني أو يساري بأضواء إحدى المدينتين أو بأضواء مدن وادي النيل وذلك برغم ما سألقاه من تحول في سيري. وهكذا سأطير مدة ثلاث ساعات وعشرين دقيقة إذا لم تتغير الرياح، ومدة ثلاث ساعات وخمس وأربعين دقيقة إذا وهنت الرياح. وبدأت في قطع ألف وخمسمائة كيلومتر فوق الصحراء.

لم يعد هناك قمر. وأمست السماء كالقار الأسود. وعلى هذا لن أستطيع أن ألمح أي ضوء ولن أستفيد من أي مَعلَم ولن تصلني أي إشارة إنسانية لو تعطل جهاز اللاسلكي. ولم أحاول أن أرقب أي شيء ما خلا البوصلة وجهاز ضبط التوازن، ولم أعد أهتم بشيء إلا باهتزاز خيط ضئيل منير من الراديوم على الستار المظلم لأحد الأجهزة. وعندما

كان ينتقل «بريفو» من مكانه، كنت أصحح برفق توازن الطائرة. ثم صعدت إلى ارتفاع ألفين من الأمتار حيث الرياح ملائمة كما قيل لي. وكنت في أوقات متباعدة، أضيء أحد المصابيح لأرى الميناءات المظلمة ولكني كنت أقضي معظم الوقت في الظلام بين كواكبي الضئيلة التي تشع ضوءًا فاتنًا لا يخبو، يحاكي ضوء النجوم والتي تحدثني بلغة النجوم. وكنت كأحد الفلكيين، أقرأ كتابًا في الميكانيكا السماوية. وأحس كالفلكي بالجهد والصفاء. لقد خبا كل شيء في العالم الخارجي، ونام «بريفو» بعد أن جُهِد ما وسعه الجُهد. وتذوقت أكثر من ذي قبل لذة الوحدة. وكنت أسمع زئير المحرك الحلو وأبصر أمامي، على اللوحة، كل تلك النجوم الهادئة.

وتأملت مصيرنا، فرأيت أنَّا لا نستفيد شيئًا من القمر ولا من الجهاز اللاسلكي ولن تصلنا بالدنيا أي صلة، مهما ضؤلت، حتى نواجه شبكة الفنارات بوادي النيل. وأمسينا خارج كل شيء. فليس هناك إلا محرك طائرتنا يعلّقنا ويبقينا في هذا الليل المعتم. وها نحن أولاء نخترق ذلك الوادي الأسود، وادي المحن والآلام، الذي سمعنا عنه في أقاصيص الجان، ولا معين لنا هنا، ولا عفوَ عن الأخطاء. لقد سُلِّمنا إلى رحمة الله.

ثم رأيت نورًا يسيل من نقطة بالجهاز الكهربائي، فأيقظت «بريفو» ليطفئه، وتحرك «بريفو» في الظلام كأنه دُبٌّ، وتقدم يعالج الثقب بمناديل وبورق أسود فاختفى الضوء. كان ذلك الخيط من النور جزءًا محطمًا في عالمنا، ولم يكن نوره كضوء الراديوم الشاحب النائي وإنما كان يحاكي نورًا ينبعث من إحدى الحانات، ولم يكن كضوء النجوم، ولكنه كان يبهرني ويمحو ما عداه من أنوار.

وبعد ثلاث ساعات من الطيران، تفجر ضياء قوي عن يمين فتطلعت إليه فأبصرت خطًّا طويلًا من الضياء متعلِّقًا بمصباح الجناح، وكان هذا المصباح محجوبًا عني حتى ذلك الحين. وكان الضياء متقطعًا، يبدو ثم يختفي. وإذن فقد دخلت في منطقة سحاب يعكس ضوء مصباحي. وكم كنتُ أتمنى أن أسير في سماء صافية وأنا على مقربة من معالم طريقي.

استضاء جناح الطائرة وثبت الضوء وأرسل أشعته، وأمسى باقة وردية من زهور من نور. وغشيتني هزات شديدة ترنحت لها وكنت أخوض ركامًا من السحب لا أدري سُمكه، فارتفعت حتى ألفين وخمسة أمتار دون أن أخرج منه ثم هبطت حتى ألف متر وما برحت الباقة الوردية ثابتة تزداد لمعانًا. حسن إذن، وليكن ما يكون! وبدأت أفكر في

شيء آخر، وسأرى عندما أخرج من هذا المأزق. ولكني لا أحب هذا الضوء الشاحب الذي يشبه ضوء الحان.

ورأيت أني أترنح. وكان ذلك طبيعيًّا، ولكني قد أُصبت بهزات طيلة طريقي برغم السماء الصافية والارتفاع الشاهق. ولم تكن الرياح قد هدأت، ولا بد أني كنت أسير بسرعة تزيد على الثلاثمائة كيلومتر في الساعة. وأيًّا كان الأمر، فإني لم أكن على علم دقيق بأي شيء، وسأحددُ مكاني عندما أخرج من هذا السحاب...

وبدأت أخرج منه، فاختفت الباقة الوردية فجأة، وكان اختفاؤها نذيرًا، إذ تطلعت أمامي فأبصرت واديًا ضيقًا بين السماء وحائط ركام جديد من السحب. وعادت الباقة الوردية إلى الحياة مرة ثانية.

لن أخرج إذن من حبائل هذا الشَّرك إلا لمدة ثوانٍ قليلة. وبعد ثلاث ساعات ونصف من الطيران، بدأ ذلك السحاب يبعث فيَّ القلق لأني كنت أقترب من وادي النيل كلما سرت كما أتخيل. ولربما استطعت رؤيته من المنافذ النادرة في السحب لو أوتيت قليلًا من الحظ. ولم أعد أستطيع الهبوط أكثر من ذلك. وإذا كانت سرعتي أقل مما أعتقد فلا بد أني ما زلت أطير فوق أراضٍ مرتفعة.

ولم أكن أشعر بأي اضطراب، غير أني كنت أخشى ضياع

الوقت، فحددت لنفسي وقتًا ينتهي بعد أربع ساعات وربع. فبعد تلك المدة سأكون قد تخطيت النيل حتى لو لم تكن هناك رياح، وهو أمر بعيد الاحتمال.

وعندما كنت أصل إلى أطراف السحب المهلهلة، كانت الباقة تقذف نيرانًا يأخذ سناها بالأبصار، نيرانًا تسرع ثم تنطفئ مرة واحدة. وأنا لا أحب هذه الاتصالات الخفية مع شياطين الليل.

وبرز نجم أخضر أمام ناظريَّ وأخذ يلمع كأنه الفنار. أهو نجم أم فنار؟ وأنا لا أحب أيضًا هذا الضياء الشديد الخارق، أو هذه الدعوة الخطيرة.

واستيقظ «بريفو» وأضاء مصابيح الميناءات، فدفعته عني هو ومصابيحه أو لمحت شقًّا بين سحابتين فانتهزت الفرصة لأتطلع إلى أسفل، وعاود «بريفو» نومه.

ولم أرَ شيئًا.

وبعد أربع ساعات وخمس دقائق أتى «بريفو» فجلس بجواري وقال لي:

ـ كان يجب أن نكون في القاهرة الآن...

ـ أعتقد ذلك...

ـ ما هذا؟ أنجم هو أم فنار؟

كنت قد خفضت سرعة المحرك، ولذلك استيقظ «بريفو» فهو شديد الحساسية لكل تغيُّر يطرأ على أزيز الطائرة، وبدأت الهبوط لأنزلق تحت كتلة السحب.

واطلعت على خريطتي. وتبين لي أني اقتربت من وادي النيل، وإذن فسأتلقى أنوار المدن من نوافذي. ولقد تخطيت تلك المدن من غير شك وعلى هذا فستصلني أنوارها عن يساري. وكنت أطير حينئذٍ تحت ركام السحب، ثم حاذيت سحابة أخرى أخذت في الهبوط إلى يساري وابتعدت عنها لكيلا أقع في حبائلها فاتجهت نحو الشمال الشرقي.

ولكن السحابة استمرت في الهبوط وسدت عليَّ منافذ الأفق جميعًا ولم أجرؤ على الهبوط أكثر من ذلك، وقرأت مقياس الارتفاع فوجدت عليه الرقم ٤٠٠ ولكني كنت أجهل الضغط الجوي في ذلك المكان ولم يكن بمقدوري إذن أن أعرف الارتفاع بالضبط. وانحنى «بريفو» فصحت به قائلًا:

ـ سأطير نحو البحر لأنزل عليه حتى لا أصطدم بالأرض.

ولكن لا شيء يُثبت أني قد صرت فعلًا فوق البحر،

فالظلام تحت هذه السحابة حالك لا ينفذ منه شيء. وانحنيت على النافذة محاولًا أن أقرأ شيئًا في ذلك الليل، مجاهدًا أن أكتشف أنوارًا أو إشارات. كنت كمن يبحث في رماد الموقد عن شعل الحياة:

ـ أهو فنار بحري؟!

ثم رأينا في نفس اللحظة ذلك الشرك الذي يبدو ثم يختفي! يا له من جنون! أين كان ذلك الفنار الخيالي الذي صنعه الليل؟ وفي نفس اللحظة التي انحنيت فيها أنا و«بريفو» لنحاول العثور عليه تحت جناحي الطائرة، في نفس اللحظة إذا بي أصيح:

ـ آه!

وأعتقد أني لم أقل غير ذلك، وأعتقد أني لم أحس إلا صوت تصدُّع مروع حطم عالمنا من أساسه. لقد اصطدمنا بالأرض ونحن نسير بسرعة سبعين ومائتي كيلومتر في الساعة.

وأعتقد أني لم أكن أنتظر شيئًا في اللحظة التالية إلا أن أرى ذلك النجم الوردي الكبير، نجم الانفجار الذي كنا على وشك الاختلاط به. ولم أشعر لا أنا ولا «بريفو» بأي اضطراب. ولم أكن أرى في نفسي إلا انتظارًا لا حدَّ له، انتظارًا لرؤية ذلك النجم الوردي الكبير الذي كنا على

وشك أن نغور فيه. ولكن لم يبدُ نجم ما، وإنما حدثت زلزلة عظيمة اكتسحت قمرتنا وانتزعت النوافذ وأرسلت أجزاء الطائرة إلى مسافة بعيدة وملأتنا بزئيرها. وارتجفت الطائرة كأنها سكين غُرس في خشب صلد، وهزنا ذلك الغضب هزًّا شديدًا. وانتظرت ثانية أو ثانيتين وأنا نافد الصبر، انتظرت أن تنفجر الطائرة كالقنبلة، ولكن الهزات الأرضية استمرت من دون أن تؤدي إلى الثوران النهائي. ولم أفهم شيئًا مما كان يجري، لم أفهم شيئًا من تلك الزلزلة، ولا من ذلك الغضب، ولا من هذا التأخر الذي لا نهاية له، ومرت خمس ثوانٍ وست ثوانٍ ثم أحسست فجأة بالدوران وبصدمة عنيفة ألقت سجائرنا خارج النوافذ وصيرت الجناح الأيمن هباءً منثورًا، ثم أطبق السكون. وصحت قائلًا لـ«بريفو»:

ـ اقفز سريعًا.

وصاح هو في نفس الوقت:

ـ النار!

وفي اللحظة ذاتها كنا قد قفزنا من النافذة المنزوعة ووقفنا على بُعد عشرين مترًا، وقلت لـ«بريفو»:

ـ ألم يُصبك أذى؟

فأجاب:

ـ لا شيء!

ولكنه كان يحك ركبته.

فقلت له:

ـ افحص نفسك، حرِّك جسمك، وأستحلفك أن تقول لي ما أصابك...

فأجابني:

ـ لا شيء، إنها مضخة الإنقاذ.

وظننت أنه سيقع فجأة وقد انشطر نصفين، ولكنه كرر لي وهو ثابت الجنان:

ـ إنها مضخة الإنقاذ!

وظننت أنه جُنَّ وأنه سيقع عما قليل...

ولكنه أدار بصره عن الطائرة التي نجت من الحريق ونظر إليَّ وهو يكرر القول:

ـ لا شيء، لقد صدمت مضخة الإنقاذ ركبتي.

(٣)

من المحال أن يُعلِّل المرء نجاتنا. وصعدتُ حاملًا المصباح الكهربائي ومتتبعًا أثر الطائرة على الأرض، فوجدتُ، على بُعد خمسين ومائتي متر من الطائرة، قطعًا من الحديد الملتوي نثرتها الطائرة على الرمل. وسنعلم عندما يأتي النهار أننا اصطدمنا بسطح منحنٍ انحناءً خفيفًا في أعلى هضبة صحراوية، وحدثت حفرة في الرمال، في المكان الذي مسَّت فيه الطائرة الأرض، تشبه الحفرة التي يشقها المحراث، وسارت الطائرة على بطنها من دون أن تنقلب كأنها إحدى الزواحف الغاضبة تزحف بسرعة سبعين ومائتي كيلومتر في الساعة. وإننا لمدينون بحياتنا من غير شك إلى هذه الأحجار السوداء المستديرة التي تجري على الأرض كالكرات، فعليها انزلقت الطائرة.

ثم نزع «بريفو» المكثِّفات حتى لا يحدث حريق فيما بعد. وكنت قد ارتكنت إلى محرك الطائرة وأعملت فكري فرأيت أني ربما أكون قد تعرضت أثناء طيراني لرياح سرعتها خمسون كيلومترًا في الساعة، وقد حدث أن كانت الطائرة تضطرب من جرَّاء الرياح، ولكن إذا كانت الرياح قد غيَّرت اتجاهها منذ التنبؤات الجوية الأولى فلن أعلم

اتجاهها الجديد. وإذن فقد وقعنا في مربع ضلعه أربعمائة كيلومتر.

وأتى «بريفو» فجلس إلى جانبي وقال:

ـ إنه لأمرٌ خارق أن نبقى أحياء.

فلم أجبه بشيء، ولم أشعر بأي فرح، إذ كانت هناك فكرة صغيرة قد بدأت تشق طريقها في رأسي وتقلقني شيئًا ما.

ورجوت «بريفو» أن يشعل مصباحه ليكون لي مَعلَمًا، ثم سرت إلى الأمام ومصباحي الكهربائي في يدي، وأخذت أدقق النظر في الأرض وتقدمت ببطء سائرًا في نصف دائرة كبرى، ثم غيرت اتجاهي عدة مرات، مُنقِّبًا في الأرض كأني أبحث عن خاتم مفقود، كما كنت أبحث منذ قليل عن شعلة الحياة، وتقدمت في الظلام وأنا منحنٍ على عمود الضياء الذي يلقيه مصباحي على الأرض. ولكن عبثًا... فعدت إلى الطائرة وجلست قرب القمرة وأخذت في التأمل. لقد كنت أنشد داعيًا إلى الأمل فما وجدته، وكنت أبحث عن إشارة من الحياة فما أرسلت لي الحياة إشارتها. وقلت لـ«بريفو»:

ـ لم أرَ أي أثر للعشب.

وصمت «بريفو» ولم أدرِ إذا كان قد فهم ما أعنيه. وستتكلم

في ذلك عندما ترفع حجب الليل، عندما يلوح الصباح. ولم أكن أشعر إلا بتعب عظيم. وتذكرت أننا في صميم الصحراء فانتفضت واقفًا وأنا أصيح:

ـ الماء!

كانت خزانات الوقود والزيت قد انفجرت، وكذلك خزان الماء وابتلعت الرمال كل شيء، ثم عثرنا على نصف لتر من القهوة في قاع «ترموس» محطَّم، وربع لتر من النبيذ في «ترموس» آخر فقطَّرنا السائلين ومزجناهما معًا، وعثرنا أيضًا على قليل من العنب وبرتقالة واحدة. وفكرت أن كل ذلك سينفد بعد خمس ساعات من السير في شمس الصحراء...

ودخلنا إلى قمرتنا لننتظر حتى النهار. وتمددت وأوشكت أن أنام. وحين بدأ النوم يغلبني حددت مركزنا في هذه المخاطرة. فنحن هنا نجهل كل شيء عن مكاننا، وليس معنا لتر كامل من السوائل. وإذا كنا على الطريق المباشر فسيجدوننا بعد ثمانية أيام، وسيكون ذلك بعد فوات الأوان، وليس لنا أن نأمل خيرًا من ذلك. وإذا كنا قد سرنا عرضًا فسيجدوننا بعد ستة أشهر، ولا يجدر بنا أن نعتمد على الطائرات فإنها ستبحث عنا فوق ثلاثة آلاف من الكيلومترات.

وقال لي «بريفو»:

ـ يا للأسف!

ـ لماذا تأسف؟

ـ كان ممكنًا أن ينتهي كل شيء مرة واحدة.

كلا، لا يجدر بالمرء أن يستسلم هكذا سريعًا. لا يجدر أن نفقد الأمل ـ مهما قَل ـ في أن نُنقَذ بطريق الجو، ولو بدا ذلك خارقًا. ولا يجدر بنا أن نبقى في مكاننا فلربما منعنا ذلك من الوصول إلى واحة قد تكون قريبة. وسنسير اليوم طيلة النهار ثم نعود إلى طائرتنا. وسنكتب قبل رحيلنا خطة السير على الرمال بحروف كبيرة.

وتكوَّرت لأنام حتى الفجر. وكنت سعيدًا جدًّا بهذا النوم، فقد شملني التعب بعالم كنت أرى فيه العديد من الأشخاص ولم أعد إذن وحيدًا في الصحراء، وتزاحمت عليَّ، وأنا نصف نائم، أصوات وذكريات ومناجاة مهموسة. ولم أكن قد ظمئت بعد، وكنت أشعر أني في حالٍ طيبة، وأسلمت نفسي للنوم كأني أسلمها لمخاطرة. وتقهقرت الحقيقة أمام الحلم...

آه، ولكن كم كان الأمر جَد مختلف حين أصبح الصباح!

(٤)

لقد أحببت الصحراء حبًّا جمًّا، وقضيت بها ليالي في الأراضي الثائرة. واستيقظت في ذلك الفضاء الأقمر حيث تُخلِّف الرياح آثار تموجاتها كما تفعل بالبحر، وانتظرت هناك العون وأنا نائم تحت جناح طائرتي، ولكن هذا لم يكن ليُقارَن بما أنا فيه الآن.

وسرنا على سفوح الكثبان التي تغطي رمالَها طبقة من الحجارة اللامعة يخيل لرائيها أنها قشور معدنية. وكانت القباب المحيطة بنا تلمع كأنها دروع. لقد هبطنا في عالم من المعادن وأمسينا سجيني دنيا من حديد.

وما نكاد نعبر قمة حتى تلوح لنا على البعد قمة أخرى تشبهها في سوادها ولمعانها. وسرنا ونحن نضرب الأرض بأقدامنا لنُخلِّف معالمَ تهدينا الطريق حين عودتنا، وسرنا والشمس قُبُلنا. ولقد قررت السير شرقًا ضد كل منطق، فكل شيء، سواء التنبؤات الجوية أو المدة التي قضيناها في الطيران، كان يجعلنا نؤمن بأننا قد تخطينا النيل، ولكن سرت قليلًا إلى الغرب فأحسست بهمٍّ مقلق لم أدرِ له سببًا، وحينئذٍ أرجأت الغرب لليوم التالي، وضحيت مؤقتًا بالشمال ولو أنه يوصل للبحر.

وحدث مثل هذا بعد ذلك بثلاثة أيام حين قررنا في شبه جنون أن نترك نهائيًّا طائرتنا وأن نسير حتى الموت، إذ اتجهنا أيضًا ناحية الشرق أو بالضبط ناحية الشمال الشرقي، وكان ذلك أيضًا ضد أي سبب معقول وضد أي أمل في النجاة. وعندما أُنقذنا تبين لنا أن أي اتجاه آخر لم يكن يؤدي لنجاتنا. فلو سرنا شمالًا لما استطعنا أن نصل البحر. ومهما بدا من حمق في هذا الاختيار، فإني أعترف بأني لم أختر ذلك الاتجاه ـ وأنا بلا معلومات تدعوني لترجيح جهة على أخرى ـ إلا لأنه الاتجاه الذي أوصل صديقي «جيوميه» إلى النجاة، في جبال «الأنديز»، حيث طال بحثي عنه. فأصبح ذلك الاتجاه في نظري، الطريق إلى الحياة.

وبعد خمس ساعات من السير تغيرت المناظر الطبيعية، وبدا نهر من الرمال كأنه يجري في وادٍ، وسرنا في ذلك الوادي سراعًا، إذ كان علينا أن نذهب إلى أبعد ما يمكن، وأن نعود قبل الليل إن لم نعثر على شيء. ثم توقفت فجأة وصحت:

ـ يا «بريفو».

ـ ماذا؟

ـ الأثر...

فمنذ متى كنا قد نسينا أن نُخلِّف وراءنا مَعلَمًا يدلنا على طريق العودة؟ إن لم نجد أثرنا فهلاكنا محقق.

وعدنا على أعقابنا ولكننا انحنينا إلى اليمين وانتوينا أن نبتعد بعدًا كافيًا ثم نسير في اتجاه عمودي على اتجاهنا الأول لنتقاطع مع أثرنا.

وما كدنا نتصل بذلك الأثر حتى عاودنا السير، وأخذت الحرارة في الازدياد ونشأت معها المسارب، ولكنها ما زالت مسارب بسيطة، وبدت لنا بحيرات كبيرة ثم أخذت تختفي كلما تقدمنا. وقررنا أن نعبر وادي الرمال، وأن نصعد إلى قمة أعلى الكثبان حتى نشرف على الأفق. وكنا نسير منذ ست ساعات، ولا بد أننا قد قطعنا خمسة وثلاثين كيلومترًا. ثم وصلنا قمة الكثيب السوداء وجلسنا عليها في صمت فرأينا وادي الرمال، تحت أقدامنا، يصب في صحراء لا حجر فيها، صحراء يأخذ سناها بالأبصار، ثم يتلوها فضاء يمتد إلى مدى البصر. وأخذ الضوء يكوِّن مسارب عند الأفق، مسارب أكثر تعقيدًا، فرأينا قلاعًا ومآذن وأشكالًا هندسية ذات خطوط متعامدة، ولاحظت أيضًا بقعة سوداء كبيرة تشبه الخضرة، وفوقها سحابة أخيرة من تلك السحب التي تذوب في النهار وتولد في الليل، ولم تكن تلك الخضرة إلا ظلًّا لها.

لا فائدة في السير أكثر من ذلك، فما أدت تلك المحاولة إلى شيء، ولا بد من الرجوع إلى الطائرة، ذلك المَعلَم الأبيض المُشرَّب بحُمرة، والذي ربما استدل به الزملاء علينا. ومع أني لم أكن أعلق أي أمل على جدوى البحث عنا، إلا أنه كان الفرصة الوحيدة للنجاة. ثم إننا تركنا في طائرتنا آخر قطرات بقيت لنا من السوائل ولا بد لنا من شربها. لا بد من العودة لنحيا. إن أغلال العطش القصيرة لا تسمح لنا بالبعد أكثر من ذلك.

ولكن ما أشق الرجوع عندما يسعى المرء نحو ما قد يكون فيه حياة له! فلربما عدونا تلك المسارب إلى آفاق غنية بالمدائن الحقيقية وبقنوات الماء الزلال وبالمراعي الناضرة. إني أعلم أن هناك أسبابًا تدعوني للعودة ولكني برغم ذلك أحس أني ذاهب إلى الفناء حين أعود.

وتمددنا قرب الطائرة. لقد سرنا أكثر من ستين كيلومترًا، وأنضبنا ما معنا من سوائل، ولم نجد شيئًا ناحية الشرق، ولم يطر أي زميل فوق هذا المكان. فإلى متى نستطيع المقاومة؟ لقد بدأنا نظمأ ظمأً شديدًا...

وبنينا موقدًا كبيرًا من بقايا الجناح المحطم، وأعددنا الوقود وصفائح المغنزيوم التي تعطي لهبًا أبيض لامعًا.

وانتظرنا حتى يشتد سواد الليل لنوقد نارنا... ولكن أين من نوقد لهم هذه النار؟

وصعدت اللُّهب في الجو، وتطلعنا إلى منارنا المشتعل في الصحراء، بخشوع وابتهال، تطلعنا إلى رسالتنا الصامتة، المشعة وهي تتوهج في جوف الليل. وأعتقد أنها لو كانت تحمل نداءً يثير العطف والرحمة فإنها تحمل أيضًا حبًّا عظيمًا. إننا نطلب ريًّا ولكننا نريد أيضًا أن نتصل بالناس. فلتوقد نار أخرى في هذا الليل، فما يملك النارَ إلا الناس، وليُجِب الناس نداءنا!

هأنذا أرى عيني زوجي، ولن أرى شيئًا عداهما. إنهما تسألانني. ثم هأنذا أرى عيون من يحبونني، وكل تلك العيون تسألني. مجمع من الأبصار يأخذ عليَّ صمتي. وإني لأجيبها جميعًا. أجيب وأجيب. أجيب بكل ما فيَّ من عزم. فلن أستطيع أن أقذف في صميم الليل بشعلة أشد ضياءً!

لقد فعلت ما استطعت. فعلنا ما بوسعنا فسرنا حوالي ستين كيلومترًا دون أن نرتوي. ولن نرتوي بعد الآن. فهل نأثم إذا كنا لا نستطيع البقاء طويلًا؟ وكنا نستطيع أن نرضخ لصوت العقل وأن نبقى في مكاننا نمتص ما معنا من سائل، ولكني منذ انتهت آخر قطرة من السائل، شعرت

بآلة تتحرك بين جنبيَّ فأخذت أهبط على منحدر. وماذا عليَّ لو حملني الزمن كما يحمل النهر؟ وبكى «بريفو» فربتُّ على كتفه وقلت له لأهوِّن عليه:

ـ إذا قُدِّر لنا أن نموت فسنموت.

وأجابني:

ـ وهل تعتقد أني أبكي على نفسي؟

نعم، لقد اكتشفت تلك الحقيقة الجلية. فما من شيء لا يُحتمل. وسأعلم غدًا وبعد غدٍ أن لا شيء لا يُحتمل. وإني لا أؤمن تمامًا بالعذاب. ولقد سبق لي أن فكرت في ذلك. فقد ظننت ذات يوم أني غارق، وكنت سجين قمرتي فلم أتألم كثيرًا. وحدث لي أن اعتقدت أحيانًا أن رأسي سيتحطم، ولم يبدُ لي ذلك بالأمر الجسيم. وهنا أيضًا لن أعرف الهَم والقلق. وسأعلم عن ذلك غدًا أشياء أكثر عجبًا. ويعلم الله إذا كنت قد يئست من إسماع صوتي للناس برغم ما أنا فيه من حُرقة!

«وهل تعتقد أني أبكي على نفسي؟» نعم، نعم إن بكاءك على نفسك لهو الأمر الذي لا يُحتمل. وفي كل مرة تعاودني فيها رؤية هذه العيون المنتظرة أشعر بحرقة الألم وتأخذني رغبة مفاجئة في النهوض والعدو إلى

الأمام فهناك صيحات استغاثة، هناك فُلك يغرق، فلأجرِ نحوه!

إنه لقلب عجيب للأوضاع، ولو أني اعتقدت ذلك دائمًا، إلا أني كنت في حاجة إلى كلمات «بريفو» لأتأكد تمامًا. نعم، لن يعرف «بريفو» أبدًا، أمام الموت، ذلك الهَم المعذِّب الذي طالما سمعنا عنه. ولكنْ هناك شيء لن يستطيع «بريفو» تحمله ولن أستطيع أنا تحمله.

آه! إني لأرضى عن طيب خاطر أن أنام طيلة ليلة، أو طيلة قرون. فإني إن نمت لن أدري ما بينهما من فارق. وما أحلاه من سلام! ولكن لا أستطيع تحمل صورة الصيحات التي يصيحها القوم هناك، لا أستطيع تحمل حرقة ذلك اليأس القاتل الذي يستولي عليهم، لا أستطيع أن أقف مكتوف اليدين أمام ذلك الفُلك الغارق. فكل لحظة من السكوت تصرع أولئك الذين أحبهم، وحينئذٍ أحس غضبًا عظيمًا يسري بين جنبي. فلِمَ هذه الأغلال التي تعوقني عن الوصول في الوقت المناسب وتمنعني إنقاذ أولئك الذين يغرقون؟ ولِمَ لا تحمل نارُنا صرختنا المدوية حتى آخر الدنيا؟ صبرًا قليلًا، سنصل، سنصل نحن المنقذين!

نفد المغنزيوم وأوشكت أن تخبو نارنا ولم يبقَ إلا قليل

من اللهيب فانحنينا عليه لنتدفأ. وانطفأت نيران رسالتنا المنيرة. فهل سيَّرت شيئًا نحونا؟ إني لأعلم تمامًا أنها لم تُسيِّر شيئًا ما. لقد كانت صلاة لم تُستجَب.

فليكن ما يكون. وسأذهب لأنام.

(٥)

وعند الشروق مسحنا جناحي الطائرة بخرقة فجمعنا قليلًا من الندى المختلط بالطلاء والزيت، وكان مقززًا، ولكننا شربناه، فهو خير من لا شيء وأقل ما في الأمر أنه ندَّى شفاهنا. وبعد تلك الوليمة الفاخرة قال لي «بريفو»:

ـ معنا مسدس، لحسن الحظ.

فأحسست فجأة أني أصبحت مهاجمًا عنيفًا والتفتُّ نحوه بعداء شديد. فما كنت لأبغض شيئًا حينذاك أكثر من إظهار العواطف الفياضة. كنت شديد الحاجة لأن أعتبر أن كل شيء بسيط. فإنه لشيء بسيط أن يولَد المرء، وإنه لبسيط أن يكبر، وإنه لبسيط أن يموت ظمأً.

ورنوت إلى «بريفو» من طرف عيني وكنت مستعدًا لأن أعتدي عليه، لو اقتضى الأمر، ليبوء بالصمت. ولكن

«بريفو» كلمني بهدوء كما لو كان يتكلم في موضوع صحي، فكأنه كان يقول: «يجب أن نغسل أيدينا». وإذن فنحن على وفاق. لقد سبق لي أن فكرت في ذلك أمس عندما لمحت الغِمد الجِلدي. وكانت آرائي عقلية وليست عاطفية. فليس هناك شخص عاطفي إلا بين الجماعة، وكنت أفكر في عجزنا عن بعث الطمأنينة في نفوس مَن نحن مسؤولون عنهم، ولم أكن أفكر في المسدس.

لم يكن البحث جاريًا عنا طول ذلك الوقت، أو على الأصح كان يُبحث عنا في مكان آخر، وربما في بلاد العرب. ومن ناحية أخرى، لن نسمع صوت طائرة قبل الغد حين نكون قد هجرنا طائرتنا، وسيدعنا عندئذٍ ذلك المعبر الفريد النائي، سيدعنا وحيدين لا يهتم بنا أحد. وليس لنا أن نتصور أن أحدًا سيلمحنا فما نحن إلا نقط سوداء مختلطة بآلاف النقط الأخرى في الصحراء. وليس صحيحًا ما سيُحكى عما لاقيته من عذاب، فلن أتحمل أي عذاب. وسيبدو لي المنقذون في كون آخر.

لا بد من خمسة عشر يومًا من البحث للوصول إلى طائرة لا يُعرف عنها شيء، على مدى ثلاثة آلاف كيلومتر، ولربما كانوا يبحثون عنا من طرابلس حتى فارس. وبرغم ذلك فقد احتفظت بذلك الأمل الشاحب، فليس هناك أمل آخر.

وغيرت الخطة، فقررت أن أذهب بمفردي للاستكشاف. وسيعد «بريفو» النار ليوقدها إن زارنا أحد، ولكننا لن نُزار.

فلأسر إذن وأنا لا أدري إذا كنت سأقوى على العودة. وعاد إلى ذاكرتي ما أعلمه عن صحراء ليبيا. فدرجة الرطوبة بها ٤٠٪ ولكنها تهبط هنا إلى ١٨٪، فتتبخر الحياة عندئذٍ. ويقول البدو الرُّحل والمسافرون وضباط المستعمرات إن الإنسان يستطيع البقاء تسع عشرة ساعة دون أن يشرب، وبعد عشرين ساعة تمتلئ عيناه بالضياء وتبدأ النهاية السريعة.

ولكن هذه الرياح الشمالية الشرقية، هذه الرياح غير العادية التي خدعتنا برغم كل التنبؤات فألقت بنا على هذه الهضبة، هذه الرياح تطيل حياتنا الآن. ولكن أي مهلة ستهبها لنا قبل ساعات الضياء الأولى؟

فلأسر إذن، ولكن يُخيل إليَّ أني أركب قاربًا استوى على المحيط.

وبرغم ذلك فقد بدا لي المنظر أقل حزنًا في ضوء الفجر وسرت ويداي في جيبي وكأني سلاب. وكنا قد نصبنا شباكنا بالأمس على فتحة جحر لبعض الحيوانات التي تعيش تحت الأرض، وبدأ الصياد، الذي يسكن بين جنبي، يستيقظ. وذهبت أولًا لأفحص الفخاخ فألفيتها خالية.

لن أشرب إذن من دم تلك الحيوانات، ولم أكن في الحق أتوقع أن أجد شيئًا.

وإذا لم يكن ظني قد خاب كثيرًا، فإن عقلي قد أصابته الحيرة. فمن أي شيء تعيش هذه الحيوانات في الصحراء؟ إنها ثعالب رملية، نوع من آكلات اللحوم في حجم الأرانب، ولها آذان ضخمة. لم أقاوم رغبتي فتتبعت أثر إحداها فوصلت إلى نهر رملي ضيق حيث كانت تبدو آثار الخطوات واضحة. وأعجبني أثر ثلاثة أصابع كأنها مروحة، وتخيلت ذلك الحيوان يسير بخفة في الفجر ويلعق الندى الساقط على الأحجار، ثم تباعدت الآثار: أي أن الثعلب أخذ بعد ذلك يعدو. ثم أتى زميل لحق به وسارا جنبًا إلى جنب. وهكذا تأملت بمرح غريب تلك النزهة الصباحية. وإني لأحب تلك العلائم للحياة. وقد أنساني ذلك ظمئي بعض الشيء.

وأخيرًا وصلت صِوانات الطعام لتلك الثعالب. رأيت شجيرات في حجم قدرة صغيرة، تبرز من الأرض كل مائة خطوة وكانت سيقانها محملة بقواقع ضئيلة الحجم ذهبية اللون. وإذن فالثعلب يذهب ساعة الفجر إلى تلك الصِّوانات. وهنا اصطدمت بأحد أسرار الطبيعة. وإنه لسرٌّ عظيم.

الثعلب لا يقف عند جميع الشجيرات. إنه يدع بعضها برغم أنه مُحمَّل بالقواقع. ويدور حول بعضها باحتياط بيِّن ويتناول طعامه من البعض الآخر ولكن دون أن يستنزفه، فيأخذ منها قوقعتين أو ثلاثًا، ثم يغير مطعمه.

فهل يريد الثعلب ألا يشبع جوعه مرة واحدة حتى يجعل لنزهته الصباحية لذة أطول؟ لا أعتقد ذلك. إن عمله يجري وفقًا لخطة لا بد منها. فلو أن الثعلب بَشِم من نتاج الشجرة الأولى، إذن لأتى على حمولتها الحية في أكلتين أو ثلاث، ولسار من شجرة إلى شجرة فأفنى مؤونته. ولكن الثعلب يحاذر من إعاقة نمو القواقع وتكاثرها. ففضلًا عن سيره إلى مائة من الشجيرات لتناول أكلة واحدة، تراه لا يأخذ أبدًا قوقعتين متجاورتين من غصن واحد. ويجري كل شيء كما لو كان يدري ما في ذلك من خطر. فلو أنه فكر فقط في شبعه من دون أن يحتاط، لفنيت القواقع. ولو فنيت القواقع لانقرضت الثعالب.

وأوصلني الأثر إلى جحر. فها هو ذا الثعلب وقد سمعني من غير شك، فروَّعه زئير خطواتي: «أيها الثعلب، لقد وقعت في كارثة ولكن ذلك لم يمنعني أن أهتم بمعرفة طبيعتك...».

وبقيت هناك متأملًا. وبدا لي أن الإنسان يُهيئ نفسه ويُكيِّفها لكل حالٍ. ولن يفسد بهجةَ المرء علمُه أنه هالك بعد ثلاثين من السنين أو بعد ثلاثة من الأيام، فليس الأمر إلا تغييرًا للمكان الذي يتطلع منه الإنسان...

ولكن لا بد لنا من أن نتغاضى عن بعض الصور...

وواصلت طريقي، ولكن بدأ بعض التحول يجري في نفسي من أثر التعب. فإذا لم تكن هناك مسارب، اخترعتها... ثم ناديت:

ـ يا هوه!

ورفعت ذراعيَّ وأنا أصيح، ولكن ذلك الرجل الذي خُيِّل إليَّ أنه يشير بيديه لم يكن إلا صخرة سوداء. وسَرَت الحياة إلى كل شيء في الصحراء. أردت إيقاظ ذلك البدوي الراقد فإذا به ساق شجرة أسود. أهو ساق شجرة أسود؟ لقد أدهشني ذلك فانحنيت على الأرض وأردت رفع غصن محطم، فإذا به من رخام! فاعتدلت ودققت النظر فيما حولي فرأيت قطعًا أخرى من رخام أسود. إنها غابات من عصور ما قبل الطوفان، انتثرت سيقانها المحطمة على سطح الأرض. إذ انهارت منذ مائة ألف من السنين كما تنهار كاتدرائية عظيمة هبَّت عليها فجأة عاصفة كونية فجعلتها كالعهن المنفوش، حملت إليَّ

العصوز تلو العصور، هذه القطع من العُمُد الضخمة المصقولة كأنها ألواح الصلب، هذه العُمُد المزجَّجة السوداء. واستطعت أن أميز فيها عقد الغصون وأن ألمح جدائل الحياة وأحصي حلقات السوق. لقد كانت هذه الغابة مليئة بالطيور مفعمة بالموسيقى فأصابتها لعنة فإذا بها حجارة خرساء. وأحسست أن هذا المنظر الطبيعي عدو لي. هذه الحجارة أشد سوادًا من دروع التلال، هذه اللُّفاظات العظيمة ترفض أن تلقاني. وماذا أصنع أنا الحي الفاني بين هذه الأحجار الخالدة؟ أنا الفاني الذي سيذوب جسده، ماذا أصنع هنا وسط الخلود؟

قطعت منذ أمس حوالي ثمانين كيلومترًا، وهذا الدوار الذي أعانيه يرجع للعطش أو للشمس. الشمس تلمع فوق السوق المنبسطة كالزيت الجامد، إنها تلمع فوق هذه القشرة الكونية. ولم يبقَ هنا لا رمال ولا ثعالب. لم يبقَ إلا سندان ضخم أسير عليه. وإني لأحس دقات الشمس في رأسي. آه، ماذا هناك...

ـ يا هوه!

ـ لا شيء هناك. لا تقلق نفسك. إنه الجنون.

وهكذا كنت أخاطب نفسي، لأني كنت في حاجة لمشاورة

عقلي، وكان شاقًا عليَّ ألا أصدق ما تراه عيناي، وكان شاقًا عليَّ ألا أجري نحو تلك القافلة السائرة هناك... أتراها؟!

ـ يا لك من أحمق، إنك تعلم تمام العلم أن تلك القافلة من اختراعك.

ـ إذن لا حقيقة في الدنيا...

لا حقيقة في الدنيا، اللهم إلا ذلك الصليب الذي ألمحه على بُعد عشرين كيلومترًا. إنه صليب أو فنار.

ولكن ليست هذه ناحية البحر. إذن فهو صليب. وكنت قد درست الخريطة طول الليل وكان عملي عديم الجدوى لجهلي موقعي. ولكن كنت أنحني على كل العلائم التي تدل على وجود الإنسان فاكتشفت دائرة صغيرة يعلوها صليب، شبيه بهذا الصليب، فرجعت إلى «البيانات» وقرأت فيها: «مؤسسة دينية». ورأيت نقطة سوداء بجوار الصليب فرجعت إلى «البيانات» مرة أخرى وقرأت فيها: «بئر دائمة». وأصابتني صدمة عظيمة في قلبي فعاودت القراءة بصوت عالٍ:

ـ بئر دائمة... بئر دائمة... بئر دائمة!

وهل يُعد «علي بابا» وكنوزه شيئًا مذكورًا إذا ما قورن

ببئر دائمة؟ ورأيت أبعد من ذلك بقليل دائرتين ذات لون أبيض. وقرأت في «بيانات» الخريطة: «بئر مؤقتة». وكان ذلك أقل روعة. ولم يكن حول ذلك شيء ما.

فها هي ذي تلك المؤسسة الدينية وقد أقام الرهبان صليبًا كبيرًا فوق الكثيب ليهدي الغرقى؛ وليس عليَّ الآن إلا أن أجري نحو هؤلاء الدومينيكانيين...

ـ ولكن ليس بصحراء ليبيا إلا أديرة قبطية.

ـ ... فلأجرِ نحو هؤلاء الدومينيكانيين التقاة. فلهم مطبخ لطيف الجو أحمر البلاط، وفي فنائهم مضخة عجيبة صدئة، وتحت المضخة الصدئة، تحت المضخة الصدئة، إنك تستطيع أن تعرف ما تحتها... تحتها تجد البئر الدائمة! آه سيقام حفل لديهم هناك عندما أدق على الباب، عندما أدق الجرس الكبير...

ـ أيها الأحمق، إنك تصف منزلًا في مقاطعة «البروفانس»، وحتى ذلك المنزل لا تجد به جرسًا.

ـ ... آه عندما أدق الجرس الكبير، سيرفع البواب ذراعيه إلى السماء ويصيح لي: «أنت مبعوث الله!»، وسينادي كل الرهبان، وسيسرعون فيحتفون بي كما يحتفون بطفل مسكين وسيدفعون بي إلى المطبخ وسيصيحون: «انتظر

قليلًا يا بني... سنجري بك إلى البئر الدائمة...». وسأهتز سعادةً وطربًا...

كلا، كلا، لن أبكي لأنه لا صليب على التل.

لم تكن الآمال في الغرب إلا أكاذيب. ولذلك اتجهت نحو الشمال تمامًا.

فالشمال مليء على الأقل بأغاني البحر.

آه، عندما أعبر هذه القمة، سينبسط الأفق أمامي. وها هي ذي أجمل مدن الدنيا.

ـ أنت تعلم تمامًا أنه سراب...

ـ نعم أعلم تمامًا أنه سراب ولا يستطيع أحد خديعتي! ولكن ما قولك إذا كان يحلو لي أن أصعِّد نحو ذلك السراب؟ إذا كان يحلو لي أن أتفاءل وأن أحب تلك المدينة ذات القباب البارزة تزينها الشمس أجمل زينة؟ ما قولك إذا كان يحلو لي أن أسير إلى الأمام بخطوات سراع لأني لم أعد أحس التعب، لأني سعيد طرِب... فليدعني «بريفو» ومسدسه، فليدعاني أضحك! إني أفضل هذا السُّكر. إني ثمل. إني أموت عطشًا!

وأفاقني الغسق من سُكري، فتوقفت فجأة هلِعًا لشعوري بذلك البعد. وفي الغسق يموت السراب وينضو الأفق

ثوبه المرصع بالقصور والآبار والملابس الكهنوتية. إنه الآن أفق صحراوي.

ـ لقد تقدمتَ كثيرًا! وسيطويك الليل عما قليل فعليك أن تنتظر النهار، وغدًا سيكون أثرك قد انمحى فتتوه.

ـ إذن فلأستمر في السير إلى الأمام... فما جدوى الرجوع؟ لم أعد أريد أن أغير اتجاهي فلربما أكون على وشك الوصول للبحر...

ـ وأين رأيتَ البحر؟ لن تصله أبدًا فثلاثمائة كيلومتر تفصلك عنه. وهناك «بريفو» بجوار الطائرة يرقب وينتظر ومن يدري لعل قافلة قد لمحته...

ـ نعم سأعود ولكني سأنادي الناس قبل كل شيء: «يا هوه». يا إلهي إن هذا الكوكب عامر بالسكان... «يا هوه، يا ناس!»...

بُح صوتي ثم ذهب، وأحسست السخرية في أن أصيح كذلك... ثم صحت مرة أخرى:

ـ يا ناس!

وكان لذلك الصوت رنين ادعاء وتصنُّع.

ثم قفلت راجعًا.

وبعد ساعتين من السير لمحت النيران التي أشعلها «بريفو» وقد أخذه الذعر فظنني قد تُهت، وأرسل تلك النيران ناحية السماء. آه إن ذلك لا يهمني...

ثم سرت ساعةً، ثم خمسمائة متر، ثم مائة متر، ثم خمسين مترًا...

ـ آه!

وقفت مبهوتًا. سيفيض الفرح على قلبي، ولكني تمالكت قواي. ها هو ذا «بريفو» يبدو في ضوء النار وهو مستند إلى الطائرة يتحادث مع أعرابيين. إنه لم يلمحني بعدُ فهو مشغول بفرحه عن كل شيء. آه لو أني انتظرت مثله... إذن لكنت الآن حرًّا طليقًا! وصحت بفرح:

ـ يا هوه!

فقفز الأعرابيان وتطلعا إليَّ وتركهما «بريفو» وتقدم بمفرده أمامي وفتحت ذراعيَّ. أمسكني «بريفو» من مرفقي وأنا وشيك السقوط وقلت له:

ـ وأخيرًا، لقد طابت الأحوال!

ـ ماذا تقول؟

ـ الأعراب؟

ـ أي أعراب تقصد؟

ـ هذان الواقفان هناك...

فنظر إليَّ «بريفو» بعجب وأحسست أنه يُسِر إليَّ على مضض بأمر جلل:

ـ لا أعراب هنا.

سأبكي هذه المرة من غير شك.

(٦)

يعيش المرء هنا تسع عشرة ساعة بلا ماء. وماذا شربنا نحن منذ أمس؟ بضع قطرات من الندى في الفجر! ولكن الرياح الشمالية الشرقية ما زالت تهب فتمنع تبخرنا شيئًا ما، كما أنها تساعد في نفس الوقت على تكوين السحب. آه لو سارت تلك السحب إلينا، آه لو أمطرت السماء! ولكن الدنيا لا تمطر أبدًا في الصحراء. وقلت لـ«بريفو»:

ـ فلنقطع مظلة الهبوط على هيئة قطع مثلثة الشكل ولنثبت تلك القطع إلى الأرض بحجارة، فإذا لم تتغير الرياح حتى الفجر استطعنا أن نجمع الندى بعد أن نعتصر القماش في أحد خزانات الوقود.

وبسطنا ست قطع من ذلك النسيج الأبيض تحت النجوم، ونزع «بريفو» أحد خزانات الوقود. ولم يبقَ إلا أن ننتظر النهار.

واكتشف «بريفو» برتقالة عجيبة بين حطام الطائرة فاقتسمناها، وشعرت بانقلاب في كياني لهذا الحدث برغم أنها كانت شيئًا تافهًا بالنسبة لما نحن في حاجة إليه، إذ كان يلزمنا عشرون لترًا من الماء.

وتمددت قرب النار، وتطلعت إلى هذه الثمرة ذات الضياء وقلت لنفسي: «لا يعرف الناس قيمة برتقالة واحدة...»، وقلت لنفسي أيضًا: «لقد قُضي علينا بالإعدام وهذا القضاء لم يمنعني تذوق اللذة. فنصف البرتقالة هذا الذي أمسكه في يدي قد حمل إليَّ مسرة من أعظم مسرَّات حياتي...». وتمددت على ظهري وأنا أمتص البرتقالة وأعد النجوم الجارية. وكنت سعيدًا سعادة لا يحدها حدٌّ، وناجيت نفسي مرة أخرى: «لا يستطيع أحد فهم هذا العالم الذي نحيا فيه إذا لم يعش في صميمه». ولم أفهم إلا اليوم سر السيجارة وكوب الخمر اللذين يقدَّمان للمحكوم عليه بالإعدام. ولم أكن أظن أنه يقبل ذلك النصيب التافه، ولكنه يقبله ويجد فيه مسرَّة عظيمة. ويتبسم ذلك الرجل الشجاع،

يتبسم لأنه يحتسي كوب خمر. أو لا نعلم أنه قد غيَّر مكانه الذي يتطلع منه، وأنه قد جعل من هذه الساعة حياة بشرية كاملة؟

وجمعنا كمية كبيرة من الماء قد تبلغ اللترين. إذن فقد انتهى الظمأ! ونجونا، وسنشرب!

وملأت كوبًا من الخزان ولكن ذلك الماء كان ذا لون أخضر جميل يضرب إلى الصفرة، وقد وجدت طعمه شنيعًا حتى اضطررت أن أتوقف لأسترد أنفاسي بعد الرشفة الأولى، وذلك برغم العطش الذي كنت أقاسيه. كنت مستعدًّا أن أشرب طينًا ولكن ذلك الطعم المعدني السام كان أقوى من ظمئي.

ورنوت إلى «بريفو» فوجدته يدور حول نفسه وعيناه إلى الأرض كأنه يبحث بعناية عن شيء فقده. ثم انحنى فجأة وتقيأ دون أن ينقطع عن الدوران، وبعد ذلك بنصف دقيقة جاء دوري وأخذتني رعدة شديدة حتى إني كنت أتقيأ راكعًا على ركبتيَّ وأصابعي في الرمال. ولم يكلم أحدنا الآخر وبقينا مضطربين هكذا طيلة ربع ساعة حتى لم نعد نُفرغ إلا قليلًا من الصفراء.

ثم انتهى كل شيء ولم أعد أحس إلا شمأزيزة بعيدة. ولكن أملنا الأخير قد ذهب. وما كنت أدري سبب ذلك،

أهو طلاء قماش المظلة أم بقايا الوقود المحترق العالقة بالخزان؟ كان لا بد من وعاء آخر أو قماش آخر.

فلنسرع لقد أتى النهار. هيا بنا نهرب من هذه الهضبة اللعينة. سنسير بخطوات سريعة حتى الموت. إني أتبع خطة «جيوميه» في «الأنديز» وأفكر فيه كثيرًا منذ أمس. وسأخرق القاعدة التي لا بد منها وهي البقاء بجوار الطائرة، إذ لن يبحث أحد عنا في هذا المكان.

واكتشفنا مرة أخرى أننا لسنا الغرقى، وإنما الغرقى هم الذين ينتظرون! أولئك الذين يهددهم سكوننا ويمزقهم خطأ شنيع، ولا يسعنا إلا أن نجري نحوهم. وحدث نفس الأمر لجيوميه، فقد قص عليَّ أنه هو الذي كان يجري نحو الغرقى! وتلك حقيقة عامة.

وقال لي «بريفو»:

ـ لو كنت وحيدًا في هذه الدنيا لتوقفت ونمت.

وسرنا إلى الأمام في اتجاه الشمال الشرقي، فإذا كنا قد اجتزنا النيل، فإن كل خطوة نخطوها تلقي بنا في أعماق الصحراء العربية.

ولم أعد أذكر شيئًا عن ذلك النهار اللهم إلا إسراعي نحو أي شيء، إسراعي نحو الموت. وأذكر أيضًا أني كنت أسير

متطلعًا إلى الأرض إذ كنت متقززًا من رؤية السراب. وكنا نقوِّم اتجاهنا من وقت لآخر مستعينين بالبوصلة، وكنا نتمدد أحيانًا لنسترد أنفاسنا المبهورة. وتركت غطائي المصنوع من المطاط في مكان ما، ولم أكن أدري أكثر من ذلك. ولم تكن ذكرياتي تتجدد وتتصل ببعضها إلا في نسم المساء. كنت كالرمال، وانمحى كل شيء من نفسي.

وقررنا عند غروب الشمس أن نخيم لنستريح. وكنت أعلم تمامًا أن علينا مواصلة السير؛ فلو قضينا الليلة بلا ماء لذهبت ريحنا. ولكننا قد أحضرنا معنا قطعًا من قماش مظلة الهبوط، فإذا لم يكن سبب التسمم من طلاء القماش فلربما استطعنا أن نشرب في صباح الغد. ولا بد أن نبسط هذه الأشراك للندى، مرة أخرى، تحت النجوم.

ولكن السماء خالية من السحب في الشمال، ولكن طعم الرياح قد تغير، وتغير اتجاهها أيضًا ومستنا فعلًا أنفاس الصحراء المحرقة. لقد استيقظ الوحش! وهأنذا أشعر به يلعق يديَّ ووجهي.

ولكن إذا واصلت السير فلن أقطع أكثر من عشرة كيلومترات. لقد قطعت في ثلاثة أيام أكثر من مائة وثمانين كيلومترًا وذلك دون أن أشرب...

ولكن في اللحظة التي توقفنا فيها، صاح «بريفو»:

ـ أقسم لك إنها بحيرة.

ـ إنك لمجنون!

ـ وهل ممكن أن يكون هذا سرابًا في هذه الساعة، ساعة الغسق؟

فلم أُجبه بشيء إذ إني لم أعد أصدق عينيَّ. ربما لا يكون سرابًا، ولكنه يكون عندئذٍ اختراعًا سبَّبه ما أصابنا من جنون. وكيف يبقى «بريفو» إلى الآن وهو يعتقد ذلك؟

وصمم «بريفو» على رأيه:

ـ إنها على بُعد عشرين دقيقة وسأذهب لأراها.

وضايقني ذلك العناد فقلت له:

ـ اذهب، اذهب لتشم الهواء ففي ذلك صحة لك. ولكن إذا كانت بحيرتك موجودة فثِق أنها بحيرة مالحة. مالحة أو غير مالحة، إنها بحيرة لعينة. ومع كل ذلك فلا وجود لها إطلاقًا.

وابتعد «بريفو» وهو ثابت العينين. وإني لأعرف هذه الأشياء ذات الجاذبية المسيطرة! وفكرت مناجيًا نفسي: «هناك أيضًا قوم مصابون بنوم اليقظة يلقون بأنفسهم تحت عجلات القطار». إني أعلم أن «بريفو» لن يعود،

فسيستولي عليه «دوار الفضاء» ولن يستطيع العودة وسيقع بعيدًا عني ويموت في ناحية وأموت أنا في ناحية أخرى. وليس لكل هذا إلا أهمية قليلة!

ولم أجد في عدم مبالاتي هذه فألًا طيبًا، فلقد شعرت بنفس هذا السلام عندما أوشكت على الغرق ذات مرة. ولكني انتهزت الفرصة لأكتب خطابًا وأنا منبطح على الحجارة. وسيكون خطابي جميلًا عظيمًا. وأفضت فيه الكثير من النصائح الحكيمة. وشعرت وأنا أعيد قراءته بسرور غامض لعله سرور الغرور. وسيقال عن هذا الخطاب: «إنه لخطاب عظيم! ويا لها من خسارة أن يموت كاتبه!».

وكنت أريد أن أعرف حالتي بالضبط، فحاولت أن أكوِّن بعض اللعاب في فمي فلم أستطع إذ لم يبقَ لديَّ شيء من اللعاب. وكلما أبقيت فمي مغلقًا تكوَّنت مادة غراوية تلصق شفتيَّ ثم تجمد وتكوِّن كتلة صغيرة. وبرغم ذلك فقد نجحت في أن «أبلع ريقي». ولم تكن عيناي قد امتلأتا بعد بالضياء، وعندما يعرض لي هذا المشهد المُشع فسيبقى أمامي ساعتان.

جنَّ الليل واتسق القمر وكبر عن الليلة السابقة، ولم يعد «بريفو». وكنت متمددًا على ظهري أفكر في تلك الأمور البيِّنة، فوجدت في نفسي شعورًا قديمًا غامضًا، وأخذت

أبحث لأحدده ولأضع له تعريفًا؛ فأنا... أنا على ظهر فُلك! في إحدى رحلاتي إلى أمريكا الجنوبية كنت مستلقيًا هكذا على ظهري في شرفة المركب العليا، وكان طرف السارية يجول بطيئًا طولًا وعرضًا، وسط النجوم. وهنا في الصحراء فينقصني مثل ذلك الساري، ولكني برغم ذلك على ظهر فُلك يحملني إلى مصير لا بد لي فيه. لقد ألقى بي بعض تجار الرقيق، مشدود الوثاق، على ظهر هذا الفُلك.

وفكرت في «بريفو»، ما له لا يعود. ما سمعته مرة واحدة يشكو، وإنه لشيء طيب فما كنت لأحتمل الأنين والشكوى. إن «بريفو» لرجل حقًّا.

آه! ها هو ذا على بعد خمسمائة متر، ها هو ذا يحرِّك مصباحه! لقد فقد الأثر، ولا مصباح لديَّ لأرد عليه، فنهضت وصحت ولكنه لم يسمع...

وأُوقد مصباح آخر على بُعد مائتي متر من مصباح «بريفو»، ثم مصباح ثالث. يا إلهي! ما هذا، إنهم يبحثون عني!

وصحت:

ـ يا هوه!

ولكن لم يسمعني أحد.

وواصلت المصابيح الثلاثة إرسال إشاراتها.

لست مجنونًا هذا المساء، وأشعر أني في حال طيبة وأني في سلام نفساني. وتطلعت بانتباه فرأيت ثلاثة مصابيح على بُعد خمسمائة متر، وصحت:

ـ يا هوه.

ولكن لم يسمعني أحد.

عندئذٍ استولى عليَّ فزع قصير الأمد، وإنه الفزع الوحيد الذي سأشعر به. كان ما زال في مقدوري أن أجري ولكني قلت لنفسي: «انتظر، انتظر». سيرجعون! سيبتعدون ويبحثون في مكان آخر، وأنا سأخر صريعًا! سأخر صريعًا وأنا على عتبة الحياة، وأنا ألمح الأذرع تمتد لعناقي!

ـ يا هوه، يا هوه.

ـ نعم، نعم!

لقد سمعوني. بُهرت أنفاسي، بُهرت أنفاسي ولكني ما زلت أجري، أجري في اتجاه الصوت وأنادي. ولمحت «بريفو» ثم وقعت على الأرض.

ـ عندما لمحت كل هذه المصابيح!

ـ أي مصابيح؟

حقًّا، لقد كان «بريفو» وحيدًا.

في هذه المرة لم أستشعر أيّ يأس ولكني أحسست غضبًا أخرس.

ـ وبحيرتك؟

ـ كانت تبتعد كلما تقدمت ولقد سرت نحوها لمدة نصف ساعة ثم صارت بعيدة جدًّا فعُدت. ولكني متأكد الآن أنها بحيرة...

ـ أنت مجنون، مجنون جدًّا. لِمَ فعلت ذلك؟

ماذا فعل؟ ولِمَ فعل ذلك؟ كنت شديد الغضب ولا أدري لماذا. وأوضح لي «بريفو» المسألة فقال بصوت مختنق:

ـ كم كنت أتمنى أن أجد رِيًّا... إن شفتيك شديدتا البياض!

هدأ غضبي... ومررت بيدي على جبهتي كما لو كنت أستيقظ من النوم وشعرت بالحزن وأخذت أقص:

ـ رأيت، كما أراك الآن، رأيت بوضوح لا يشوبه أي خطأ ثلاثة مصابيح... أقول لك إني رأيتها يا «بريفو».

وصمت «بريفو» أول الأمر ولكنه اعترف أخيرًا فقال:

ـ نعم لقد ساءت حالنا.

تفقد الأرض حرارتها بسرعة في هذا الجو الخالي من بخار

الماء. ولقد أمسى الجو شديد البرودة. نهضت وسرت ولكن أخذتني رعدة لا تحتمل، إذ إن دمي قد نضب ما فيه من ماء فأصبح لا يجري بنظام. واخترق جسدي برد مثلج ولم يكن برد الليل فحسب. واصطكت أسناني وانتفض جسدي كله انتفاضًا ولم أعد أستطيع استخدام المصباح الكهربائي لشدة ارتجاف يدي. لم أكن أبدًا شديد الحساسية بالبرد ولكن هأنذا على وشك الموت بردًا، فيا له من أثر للعطش عجيب!

لقد تركت غطائي المطاط في مكان ما إذ تعبت من حمله في ذلك الجو الحار، ثم تغيرت الرياح وساءت شيئًا فشيئًا واكتشفت ألا ملجأ في الصحراء فهي ملساء كقطعة من الرخام لا تظللك نهارًا ولا تحميك من البرد ليلًا. فلا شجرة ولا عريش ولا حجر يحميني. وهاجمتني الرياح كأنها فرسان مقاتلة في بطحاء عارية من كل شيء، وجعلت أمشي على هيئة دائرة لأهرب منها ثم تمددت ثم نهضت. وسواء نمت أو وقفت فلقد كنت في الحالين معرضًا لسياطها المثلجة. لم أكن أستطيع الجري فلم تعد لي قوة على ذلك، ولم أستطع الهرب من أولئك القتلة، ووقعت على ركبتيَّ ورأسي بين يديَّ في الرمل!

فهمت المسألة بعد ذلك بقليل. كنت قد نهضت وسرت

للأمام وأنا دائم الارتجاف! فأين أنا الآن؟ آه، لقد سرت منذ قليل وهأنذا أسمع صوت «بريفو» ولقد أيقظني نداؤه...

فعدت نحوه وما زالت هذه الرعدة وهذا الانقباض يهزانني وقلت لنفسي: «ليس هذا أثر البرد. إنه شيء آخر. إنه النهاية». لقد ذهب الكثير مما في جسمي من ماء فقد مشيت كثيرًا أول أمس وأمس عندما كنت أسير وحيدًا.

وآلمني أن تكون نهايتي بسبب البرد. وكنت أفضل السراب، أفضل ذلك الصليب وأولئك الأعراب وتلك المصابيح؛ فقد انتهيت إلى أن وجدت فيها شيئًا أهتم به. أنا لا أحب أن أُجلد بالسياط كالرقيق.

وهأنذا أجثو على ركبتيَّ مرة أخرى.

كنا قد حملنا معنا بعض الدواء. مائة جرام من الإيثر ومائة من الكحول درجة ٩٠ وزجاجة من اليود. فحاولت شرب جرعتين أو ثلاث من الإيثر النقي فكنت كأني أبتلع سكينًا. ثم حاولت شرب قليل من الكحول ولكنه سد حلقي.

وحفرت حفرة تمددت فيها وغطيت نفسي بالرمال ولم يكن يبرز إلا وجهي. ووجد «بريفو» بعض الحشائش الجافة

فأوقد نارًا سرعان ما ذوى لهيبها. ورفض أن يدفن نفسه في الرمل وفضل أن يقف محركًا رجليه، وإنه لمخطئ.

وبقي حلقي مقفولًا، وإن ذلك لنذير مشؤوم. وبرغم هذا فقد كنت أحس أن حالي قد تحسنت وشعرت بهدوء يفوق كل ما يُرجى. كنت مقهورًا على السفر في سفينة تجار الرقيق، وكانت السفينة تجري تحت النجوم ولكني لم أكن شديد البؤس...

لم أعد أحس البرد على شرط ألا أحرك أي جزء من جسمي ثم نسيت جسدي الراقد تحت الرمال. لن أتحرك ولن أتألم. وفي الحق أن الألم الذي يعانيه المرء لقليل؛ فوراء هذه الآلام ينسجم التعب والجنون ويتحول كل شيء إلى كتاب من صور أو إلى قصة من قصص الجان، قصة قاسية شيئًا ما... فمنذ قليل كانت الرياح تطاردني وكنت أدور كالحيوان لأهرب منها، وإذا أردت التنفس عانيت الألم كأن قوة تضغط على صدري وكنت أجاهد ضد كل تلك القوة ولم أكن قط وحيدًا بالصحراء. وأمسيت الآن لا أعتقد في شيء مما يحيط بي، ولهذا اعتكفت داخل نفسي وأغمضت عينيّ، وبقيت جامدًا لا أرمش. وأحسست بهذا الفيض من الصور يحملني نحو حلم هادئ كما تحمل الأنهار مياهها الصاخبة فتهدأ في أعماق البحر.

وداعًا يا مَن كنت أحبهم. ليس عليّ إثم إذا كان الجسم الإنساني لا يتحمل البقاء ثلاثة أيام بلا ماء. ما اعتقدت قط أن الإنسان سجين الماء، على هذه الصورة. ولا ظننت أن حريته مقيدة بهذا القيد. يعتقد المرء أنه يستطيع الذهاب أنَّى شاء، ويعتقد أنه حر... ولا يرى الحبل الذي يوثقه بالبئر، الحبل الذي يربطه ببطن الأرض كأنه حبل سُرِّي، فإذا سار خطوة أكثر من اللازم خر صريعًا.

لن آسف على شيء إلا على آلامكم أيها الأحباء. ولو أحصينا كل شيء لوجدتموني صاحب النصيب الأوفى. وإذا رجعت لكم فسأعاود الطيران، ذلك أني في أشد الحاجة لأن أحيا ولم تعد في المدن حياة إنسانية.

وليست المسألة هنا مسألة الطيران فما الطائرة إلا وسيلة، إنها ليست غاية. ولا يعرِّض المرء حياته للخطر من أجل الطائرة كما أن الفلاح لا يحرث الأرض من أجل المحراث. ولكن الطائرة تجعلنا نودِّع المدن ومن فيها من الموظفين الكتابيين ونلقى تلك الحقائق الريفية التي فقدناها.

وفي الطيران يعمل المرء عمل الرجال ويعرف هموم الرجال، ويتصل بالرياح والنجوم والليل والرمال والبحر. ويجرِّب خدعه ضد قوى الطبيعة وينتظر الفجر كما ينتظر

البستاني الربيع، وينتظر محطة الطيران كأنها أرض الميعاد، ويبحث عن الحقيقة بين النجوم.

لن أشكو أبدًا. فمنذ ثلاثة أيام وأنا أسير ولقد أصابني الظمأ ولقد تقصصت الأثر، وجعلت من الندى أقصى آمالي، وجاهدت لأتصل بالإنسان، وكنت قد نسيت طريق مسكنه على وجه الأرض وتلك هموم مَن يحيون ولا يمكنني أن أعدها أقل أهمية من اختيار ملهى بإحدى المدن في المساء.

لم أعد أفهم قيمة أولئك الناس الذين يملأون قطارات الضواحي، أولئك الرجال الذين يحسبون أنفسهم رجالًا أحرارًا وما هم إلا لعبة في يد العُرف الذي يسيِّرهم، إنهم كالنمل ولكنهم لا يحسون ذلك. وكيف يقضي أولئك الناس إجازات الأحد التي لا طعم لها؟

سمعت مرة في أحد المصانع بروسيا عزفًا لمقطوعات «موتسارت». ولقد كتبت عن ذلك مرة فوصلتني مئات من رسائل السب. وأنا لا أحقد على من يفضلون موسيقى الحانات فهم لا يعرفون سواها، وإنما أحقد على صاحب الحان فأنا لا أحب من يفسدون الناس.

وأنا سعيد في مهنتي، وأشعر وأنا أجول بين محطات الطيران أني أجول في قريتي. وإني لأشعر بموتي في قطار

الضواحي أكثر مما أشعر به هنا. وإذا صفَّيت الحساب الآن وجدتني قد فزت من الحياة بالنصيب الأوفى!

لست بآسف على شيء، لقد لعبت وخسرت، وذلك يتفق وطبيعة مهنتي. ولكني قد عرفت رياح البحار واستنشقتها.

ومن ذاق ذلك القوت مرة واحدة لا ينساه أبدًا. أليس كذلك يا رفاق؟ ليست المسألة أن تعيش في خطر فهذا كلام دَعِيٍّ. وأنا لا أُعجب بمصارعي الثيران. وليس الخطر هو ما أحب، إني أعرف ماذا أحب، إنها الحياة.

خُيل إليّ أن السماء ستبيضُّ عما قليل. وأخرجت ذراعي من الرمل إذ كانت هناك قطعة من القماش في متناول يدي فجسستها ولكنها كانت لا تزال جافة. فلننتظر فالندى يسقط مع الفجر. ولكن الفجر لاح ولما يبتل القماش. عندئذٍ اضطربت أفكاري قليلًا وأخذت أقول:

ـ هنا قلب نضب معينه، نضب معينه فلم يعد يستطيع البكاء!

فلنرحل يا «بريفو»! لم تُغلق حلوقنا بعد فيجب أن نسير.

(٧)

ما زالت رياح الغرب تهب، تلك الرياح التي تجفف الرجل في تسع عشرة ساعة. لم يُقفل حلقي بعد ولكنه جاف مؤلم، وقد بدأت أحس فيه شيئًا جامدًا وعما قليل سيبدأ ذلك السعال الذي وصفوه لي والذي أنتظره الآن. وأصبح لساني يضايقني ولكن الأخطر من ذلك أني بدأت ألمح نقطًا لامعة. وعندما تستحيل تلك النقط لهيبًا فسأنام إلى الأبد.

وسرنا سراعًا منتهزين نسيم الفجر، إذ كنا نعلم تمامًا أننا لن نستطيع السير عندما تشتد الشمس. فليس لنا الحق أن نفقد أي ماء بالعرق، وليس لنا الحق أن ننتظر. وليس هذا النسيم نسيمًا بالمعنى المقصود فهو نسيم يحتوي على ١٨٪ من الرطوبة. وهذه الريح تهب من الصحراء، فوراء عطفها الزائف يتبخر ما في أجسادنا من ماء.

لقد أكلنا قليلًا من العنب في اليوم الأول وأكلنا نصف برتقالة ونصف كعكة في ثلاثة أيام. ولو وجدنا الآن طعامًا فبأي لعاب نمضغه؟ ولكني لا أحس أي جوع وإنما أشعر بالعطش. وأشعر بشيء غير العطش هو نتيجة العطش، فأحس بحلقي وقد جمد ولساني وقد تصلَّب،

وأحس طعمًا شنيعًا في فمي، وإنها إحساسات جديدة عليَّ وسيشفيها الماء من غير شك، ولكن ليس لديَّ من الذكريات ما يجمع بين تلك الإحساسات وبين الدواء الذي يشفيها، وأصبح العطش مرضًا ولم يعد رغبة.

ويُخيل إليَّ أن صور الينابيع والفواكه قد أضحت أقل إيلامًا لنفسي، وأخذت أنسى لذة البرتقالة وذلك الإشعاع الذي كان ينبعث منها. ويخيل إليَّ أيضًا أني قد نسيت كل ما كنت أحبه وربما أكون قد بدأت في نسيان كل شيء.

وجلسنا لنستريح ولكن لا بد من معاودة السير، ولم نعد نفكر في قطع مسافات طويلة، فبعد أن نسير خمسمائة متر نسقط من الإعياء. وشعرت بلذة عظيمة وأنا أتمدد لأستريح. ولكن لا بد من معاودة السير.

وبدأت المناظر الطبيعية تتغير وأخذت الأحجار تتباعد ثم صرنا نسير على الرمال وبدت على بُعد كثبان عليها آثار بعض الخضرة. وإني لأفضل هذا الرمل على تلك الدروع الحديدية التي كنا نسير بينها آنفًا. إنها الآن الصحراء الشقراء، إنها الصحراء الحقيقية وأظن أني أعرفها.

سنفنى بعد مائتين من الأمتار، ولكن لا بد من أن نسير برغم ذلك حتى نصل على الأقل إلى تلك الشجيرات.

وذلك هو الحد الأقصى. ولكننا سنعلم بعد ذلك بثمانية أيام عند عودتنا بالسيارة، وسيرنا على آثارنا للبحث عن الطائرة، سنعلم أننا قطعنا في تلك المحاولة الأخيرة مسافة ثمانين كيلومترًا. وكنت قد اجتزت ما يقرب من مائتي كيلومتر. فكيف نستطيع مواصلة السير؟

بالأمس كنت أمشي بلا أمل، واليوم فقدت هذه الكلمات معناها. اليوم نمشي لأننا نمشي كالثيران ساعة الحرث. وبالأمس كنت أحلم بجنان فيها أشجار البرتقال، واليوم لم يعد هناك جنة إطلاقًا، بل لم أعد أعتقد بوجود البرتقال.

ولم أعد أكتشف أي شيء في نفسي اللهم إلا جفافًا عظيمًا في القلب. أنا على وشك الموت ولكني لا أعرف اليأس. وحتى الألم لا أعرفه. وإني لآسف على ذلك، فإني أعتقد أن الألم لو أتاني لكان حلوًا كالماء، فإن المرء يرثي عندئذٍ لنفسه ويشكو إلى نفسه كما لو كان يشكو لصديق عزيز. ولكن لم يعد لي في الدنيا صديق.

وعندما يعثرون عليَّ، فيرون عينيَّ وقد احترقتا، عندئذٍ يظنون أني استغثت كثيرًا وأني تألمت كثيرًا. ولكن المشاعر والأسف والآلام، كلها تكوِّن ثروات عظيمة. ولم يعد لي شيء من تلك الثروات. فالفتيات الناضرات يعرفن الألم ويبكين في مساء حبهن الأول. الألم متصل

بكل نبضة من نبضات الحياة. وأنا لم يعد لي نصيب من ذلك الألم...

الصحراء، لقد أصبحتُ كالصحراء. لم أعد أكوِّن شيئًا من اللعاب ولم أعد أكوِّن شيئًا من الصور الحلوة التي كنت أستطيع مناجاتها والشكاية لها. لقد أنضبت الشمس معين دموعي.

وبرغم كل ذلك، فما هذا الذي ألمحه؟ ريح من الأمل تمر عليَّ كما تمر العاصفة على البحر. فما هي الإشارة التي عرفتها بالغريزة قبل أن أعرفها بالعقل؟ لم يتغير شيء، وبرغم ذلك فقد تغير كل شيء. فهذا الفراش الرملي، وهذه الكثبان وهذه البطاح لم تعد منظرًا من مناظر الطبيعة، وإنما أضحت مشهدًا من مشاهد الحياة وإن كان ما زال ينقصه من يلعبون الدور. إنه مشهد معدٌّ مهيَّأ. ورنوت إلى «بريفو» فرأيته قد أصيب بنفس الدهشة التي أصابتني وهو أيضًا لا يفهم شيئًا فيما يحسه.

أقسم لك إن شيئًا على وشك الحدوث...

أقسم لك إن الروح سرت في الصحراء. أقسم لك إن هذا الغياب وهذا السكون قد أصبحا فجأة أشد تأثيرًا من ضجة في أحد ميادين المدينة...

لقد نجونا، فها هي ذي بعض المعالم على الأرض!

كنا قد فقدنا أثر الإنسان، وانفصلنا عن الجماعة البشرية، وأضحينا فريدين في الدنيا، هاجر الكون جميعه وتركنا هنا، وها نحن أولاء نكتشف أقدام الإنسان العجيبة مطبوعة على الرمال.

ـ هنا، يا «بريفو»، هنا افترق رَجلان.

ـ هنا، أناخ بعير.

ـ هنا...

وبرغم ذلك فلم تتم نجاتنا بعد، فبعد بضع ساعات لن يستطاع إنقاذنا، وإذا بدأ سعال العطش فسيحين حيننا وشيكًا. وحَلْقانا...

ولكني أؤمن بتلك القافلة السائرة هناك في مكان ما من الصحراء.

وعلى ذلك سرنا، ثم سمعت فجأة صياح الديك وكان «جيوميه» قد قال لي: «قرب النهاية كنت أسمع ديكة تصيح في جبال «الأنديز». وكنت أسمع أيضًا أصوات قطارات...».

ذكرت حديثه حين سمعت غناء الديك، وقلت لنفسي:

«لقد خدعتني أولًا عيناي وكان ذلك نتيجة العطش، أما أذناي فقد استطاعتا أن تقاوما أكثر...»، ولكن «بريفو» أمسكني من ذراعي وقال:

ـ أسمعتَ؟

ـ ماذا؟

ـ الديك.

ـ إذن، إذن...

إذن فهي الحياة، هي الحياة...

ثم رأيت رؤية كاذبة للمرة الأخيرة: رأيت ثلاثة كلاب يتتابعون. ولم يرَ «بريفو» شيئًا من ذلك مع أنه كان يدقق النظر. ولكن ها نحن الاثنين نمد أذرعتنا إلى ذلك البدوي، ها نحن الاثنين نبذل كل ما فينا من جهد لنُسمعه أصواتنا، ها نحن الاثنين نضحك من السعادة!

ولكن أصواتنا لا تصل إلى أبعد من ثلاثين مترًا؛ فلقد جفت حبالنا الصوتية. وكنا نكلم بعضنا بصوت منخفض ولم نكن قد لاحظنا ذلك.

ولكن هذا هو البدوي وهذا هو بعيره قد لاحا منذ قليل من وراء الكثيب، وأخذا الآن يبتعدان ويبتعدان ببطء.

ولربما كان هذا الرجل وحيدًا. فأي شيطان قاسٍ أظهره لنا ثم أخذ يسترده...

ولن نستطيع الجري!

ثم لاح لنا عربي آخر على الكثيب، وصرخنا، ولكن كان صوتنا منخفضًا، فحركنا أذرعتنا وخُيل إلينا أننا نملأ السماء بإشارات عظيمة، ولكن ذلك البدوي كان دائم التطلع إلى ناحية أخرى، إلى ناحية اليمين. ثم بدأ يدير رأسه ببطء. وفي اللحظة التي سيواجهنا فيها سيتم كل شيء. في اللحظة التي سيتطلع إلينا فيها سيمحو منا العطش والموت والسراب. لقد أدار رأسه فغير الدنيا، وبحركة واحدة ونظرة واحدة أرجع لنا الحياة، وبدا لي كأنه إله...

إنها لمعجزة... ها هو ذا يسير نحونا على الرمال كما يسير إله على البحر...

ونظر إلينا العربي وضغط بيديه على أكتافنا فأطعناه وتمددنا. هنا لا أجناس ولا لغات ولا خلافات... هذا البدوي الفقير يضع يديه على أكتافنا كالملاك.

وانتظرنا وجباهنا في الرمل، ثم أتانا بالماء فشربنا ونحن نيام على بطوننا ورؤوسنا غارقة في الحوض كالماشية،

وارتاع البدوي فأجبرنا على التوقف عدة مرات. ولكنه لم يكن يتركنا إلا لنعاود غمر وجوهنا في الماء.

الماء!

أيها الماء: لا لون لك، ولا طعم، ولا شذى. لا يستطيع المرء أن يضع لك تعريفًا، وإنما يذوقك من دون أن يعرف كنهك. لست ضروريًّا للحياة، فأنت الحياة نفسها. إنك لتبعث فينا لذة لا تستطيع حواسنا تفسيرها، ولقد عادت إلينا بعودتك كل القوى التي فقدناها، وبفضلك تفجرت في قلوبنا كل الينابيع الناضبة.

أنت أعظم ثروة في الدنيا وأرقُّها أيضًا، أنت النقي في بطن الأرض. قد يموت المرء أمام ينبوع مغنيزيِّ المياه. وقد يموت على قيد خطوات من بحيرة مالحة. وقد يموت برغم لترين من الندى اختلطت بهما بعض الأملاح. فأنت نقي لا تقبل الامتزاج بأي شيء، ولا تتحمل أي تغيير، أنت قوة خارقة مليئة بالشكوك والاحتياط.

ولكنك تسكب فينا سعادة بسيطة غاية البساطة.

وأما أنت أيها البدوي الذي أنقذتنا فستُمحى صورتك من ذاكرتي، ولن أذكر أبدًا طلعتك. أنت رمز الإنسان، وإنك لتبدو لي بوجه يجمع بين وجوه البشر أجمعين. إنك

لم تحدِّق النظر فينا ولكنك عرفتنا توًّا، فأنت الأخ الحبيب وأنا بدوري سأعرف وجهك في وجوه البشر جميعًا.

إنك تبدو لي تحيط بك هالة من النبل والعطف. فأنت سيد عظيم، له القدرة على أن يهب الناس الماء. كل أعدائي وكل أصدقائي يبدون لي متجمعين فيك ويسيرون نحوي. ولم يعد لي في الدنيا عدو واحد.

الفصل الثامن

البشر

(١)

وسرت مرة أخرى بإزاء حقيقة لم أفهمها. اعتقدت أني هالك وأني وصلت إلى أقصى درجات اليأس، ولكني ما كدت أستسلم لمصيري حتى عرفت السلام. ويبدو أن الإنسان يكشف نفسه في تلك الساعات، ويصبح صديقًا لنفسه، ولا يعود هناك شيء يستطيع التغلب على ذلك الشعور بالكمال الذي يُرضي فينا حاجة ضرورية لم نكن نشعر بها من قبل. وأعتقد أن «بونافوس» الذي كان يفنى بين الرمال قد عرف ذلك الصفاء النفسي. وكذلك كان «جيوميه» بين ثلوجه، فكيف أنسى أنا أيضًا أن قلبي قد عمَّره الإيمان حين كنت مدفونًا في الرمال حتى رقبتي، وحين كان العطش يذبحني، وأنا ملتحف بالنجوم.

ولكن كيف نهيئ في أنفسنا ذلك النوع من الخلاص؟ إننا نعلم تمامًا أن كل شيء عجيب متناقض لدى الإنسان. فهذا شخص نضمن له العيش ليعمل ويخلق فإذا به ينام. وهذا الغازي ينتصر وإذا به يصبح رخوًا، وهذا الأريحيُّ تُيسَّر له الثروة فيضحى بخيلًا. وما قيمة المذاهب السياسية التي تدَّعي أنها تسعد البشر إذا كنا لا ندري أي نوع من البشر ستسعده؟ ومن ستخلقه؟ لسنا قطيعًا يرعى، وإن نبوغ شخص واحد كـ«باسكال» ليرجح ميلاد عديد من الأشخاص السعداء المجهولين.

لا نستطيع التنبؤ بما هو ضروري. فكل منا قد عرف أعظم المسرَّات ولم يكن هناك ما ينبئ بحدوثها، وتركت لنا تلك المسرَّات حنينًا عظيمًا إليها حتى إننا لنأسف على ما كان يشوبها من آلام. ولقد ذقنا جميعًا سحر الذكريات العصيبة عندما كنا نلقى زملاءنا.

فماذا ندري؟ لا شيء اللهم إلا إذا اعترفنا أن هناك ظروفًا مجهولة هي التي تخصبنا. وأين تستقر حقيقة الإنسان؟

ليست الحقيقة شيئًا نثبته بالمنطق. فإذا كانت شجرات البرتقال تنمو نموًّا طيبًا، وتُحمَّل بالثمار في هذه الأرض دون غيرها من الأراضي، فهذه الأرض هي الحقيقة بالنسبة لشجرات البرتقال. وإذا كان هذا الدين أو هذه الثقافة أو

هذه القيم أو هذا النوع من النشاط ـ وليست أشياء أخرى ـ هي التي تهيئ في الإنسان ذلك الكمال النفساني، وتُحيي فيه سيدًا عظيمًا كان هو نفسه يجهل وجوده، فمعنى ذلك أن هذه القيم وهذه الثقافة وهذا النوع من النشاط هو الحقيقة بالنسبة للإنسان أما عن المنطق فليجد له وسيلة للتعبير عن الحياة.

تكلمت طيلة هذا الكتاب عن بعض مَن يبدو أنهم أطاعوا ميلًا مسيطرًا على نفوسهم فاختاروا الصحراء أو الطيران كما يختار آخرون الدير. ولكني أكون قد تنكَّبت غرضي لو بدوت لكم داعيًا إلى الإعجاب ببعض الرجال قبل كل شيء. إن الجدير بالإعجاب قبل أي شيء هو الأرض التي كوَّنتهم.

إن الميول تلعب دورًا من غير شك. فالبعض يعتكف في حانوته، والبعض الآخر يسير في طريق لا محيص له عنه، وإنا لنجد في تاريخ طفولتهم بذور تلك الحوافز التي تسيِّرهم إلى مصيرهم. ولكن التاريخ يخدعنا لو قرأناه بعد أوانه. فتلك الحوافز موجودة لدى الجميع تقريبًا. ولقد عرف كلنا بعضًا من أصحاب الحوانيت الذين بدوا أعظم من أنفسهم ذات ليلة أثناء حريق أو غرق، وهم أنفسهم لا يخطئون ساعتئذٍ في معرفة نوع عظمتهم، ولكن ذلك

الحريق سيبقى لغز حياتهم، حتى إذا لم تُعرض لهم فرص جديدة أو أرض صالحة أو دين مُلحٌّ، رجعوا إلى نومهم دون أن يؤمنوا بعظمتهم. إن الميول تساعد الإنسان على تحرير نفسه ولكن لا بد من تحرير الميول نفسها.

ليالي الطيران أو ليالي الصحراء... تلك فرص نادرة لا تُعرض لكل الناس؛ ولكنها لو أتت يومًا فسيكون الجميع سواسية. ولن أخرج عن موضوعي لو قصصت قصة ليلة بإسبانيا علمتني شيئًا عن ذلك الأمر، فلقد تكلمت طويلًا عن البعض وأحب أن أتكلم عن الجميع.

كان ذلك في جبهة مدريد أثناء زيارتي لها كمخبر صحفي، وكنت أتعشى في ذلك المساء على مائدة يوزباشي شاب في قاع أحد المخابئ.

(٢)

كنا نتحدث إذ دقَّت المسرة وبدأت محادثة طويلة، وكان الأمر يتعلق بهجوم محلي يأمر به مركز القيادة، هجوم يائس مستحيل، للاستيلاء على بعض المنازل التي حُوِّلت إلى قلاع من الأسمنت في تلك الضاحية العمَّالية. ورفع اليوزباشي كتفيه وعاد إلينا قائلًا:

ـ سيذهب أول من يبدو منا.

ثم دفع إليَّ وإلى جاويش كان حاضرًا بكأسين من الكونياك وقال له:

ـ ستخرج معي. اشرب ثم اذهب لتنام.

وذهب الجاويش لينام وكان عشرة ساهرين حول المائدة في هذه الحجرة المغلقة تمامًا بحيث لا ينفذ منها أي نور، وكان الضياء قويًّا لدرجة أني كنت أضطر لتضييق عينيَّ لأرى. كنت قد ألقيت نظرة منذ خمس دقائق من خلال كوَّة، فرفعت الخرقة التي تحجبها وعندئذٍ لمحت أطلال منازل مأهولة غارقة في ضوء القمر وعندما أعدت الخرقة إلى مكانها خُيِّل إليَّ أني أمسح شعاع القمر كما لو كنت أمسح سيلًا من الزيت، وبقيت في عيني صورة قلاع خضراء زرقاء.

لن يرجع هؤلاء الجنود، ولكنهم لا ينبسون بكلمة فقد عقد الخجل ألسنتهم، وهذا الهجوم يتفق وطبيعة عملهم. فهذه مخازن الرجال يُغترف منها كما تغترف الغلال، وتقذف حفنة منها للبذر.

وكنا نحتسي الكونياك، وعن يميني اثنان يلعبان الشطرنج وعن يساري قوم يتندرون. فأين أنا؟ دخل

رجل نصف ثمل وهو يحك ذقنه الخشنة ومر علينا بعينيه الوديعتين ثم انحرفتْ نظرته إلى الكونياك ثم تحولت عنه، وما لبثت أن عادت إليه ثم ذهبت إلى اليوزباشي وكأنها تتوسل إليه. وضحك اليوزباشي بصوت خفيض وأحس الرجل بعض الأمل فتبسم هو الآخر وغشيت الحاضرين ضحكة خفيفة. وأبعد اليوزباشي زجاجة الكونياك بخفة وأمست نظرة الرجل نظرة يأس، وهكذا بدأت لعبة صبيانية في جو يكتنفه دخان السجائر الكثيف، وليل أبيض فانٍ، وصورة الهجوم القادم، وكانت تلك اللعبة تجري كأنها حلم.

وهكذا كنا نلعب ونحن سجناء في قاع مركبنا الحار، وفي الخارج كانت تتضاعف أصوات الانفجارات كأنها لطمات الأمواج.

وعما قليل سيجلو هؤلاء الرجال أنفسهم في مياه الحرب فيتخلصون من عرقهم وسُكرهم ومن أوضار هذا الانتظار. وإني أراهم على تمام الأهبة ليتطهروا ولكنهم يستمرون في شربهم ولعبهم ما استطاعوا، ويتابعون دور الشطرنج ما وسعتهم المتابعة. يطيلون الحياة بقدر ما يتيسر لهم. ولكن هناك ساعة جليلة ترقد على رفٍّ وقد ضبطت وستدق، وحينئذٍ ينهض الرجال ويتمطون ويلبسون

مناطقهم ويأخذ اليوزباشي مسدسه ويفيق السكير من خمره ويسير الجميع على ذلك المنحنى الهيِّن الصاعد إلى فتحة مستطيلة يضيئها القمر، وسيفوهون بأشياء عادية بسيطة: «يا له من هجوم...»، أو «الجو بارد». ثم يغوصون في لُجَّة البحر.

وعندما حانت الساعة شهدت يقظة الجندي وكان يرقد متمددًا على سرير حديدي بين أطلال أحد الكهوف، ورنوتُ إليه وهو نائم، وبدا لي أنه يتذوق طعم ذلك النوم الهادئ الهني الذي لا يشوبه أي همٍّ، فتذكرتُ أول يوم لي بليبيا عندما سقطتُ أنا و«بريفو» في الصحراء ولا ماء لدينا وكان قد قضي علينا بالإعدام، ولكننا استطعنا قبل أن نستشعر العطش الشديد أن ننام طيلة ساعتين وكانت تلك المرة الوحيدة. وكان لديَّ شعور وأنا أنام أني أستخدم قوة عجيبة للتحرر من دنياي. وكان جسمي ما زال يدعني في سلام، فما كدت أدفن وجهي بين ذراعيَّ حتى أصبحت ليلتي كأي ليلة سعيدة ولا فارق بينهما.

وهكذا رقد ذلك الجاويش وهو متكوِّر الجسم وليست له هيئة إنسان. وعندما أوقد موقظوه شمعة وثبَّتوها على رقبة زجاجة، لم أميز أول الأمر شيئًا من تلك الكتلة غير المنتظمة إلا حذاء الجندي الضخم المغطى بالمسامير

والحديد، وحذاء عامل من الفَعَلة أو من عُمال الأرصفة بالموانئ.

وكان ذلك الرجل مرتديًا أجهزة عمله، ولم يكن على جسده إلا أجهزة: منطقة الخراطيش، مسدسات، حمالات جلدية، حزام تُعلق فيه الأسلحة، فكأن عليه سرجًا وطوقًا وعدة كاملة لحصان مهيأ للحرث. يرى المرء في بعض الكهوف بالمغرب طواحين تديرها خيل كفيفة. وهنا في هذا الضوء الأحمر المرتجف، كانوا يوقظون أحد الخيل الكفيفة ليجر طاحونته:

ـ هيا أيها الجاويش!

وتحرك ببطء وبدا وجهه وما زالت به آثار النوم، وكان يتمتم بكلمات غير مفهومة ولكنه استدار للحائط ولم يكن يريد أن ينهض. لقد كان يتحصن في أعماق النوم كما يتحصن الجنين في أحشاء أمه، كان كالغريق في أعماق مياه بعيدة الغور يفتح قبضتيه ويقفلهما على شيء يتعلق به من الطحالب. كان لا بد من حل عقدة أصابعه. فجلسنا على سريره ووضع أحدنا ذراعه بخفة وراء رقبته ورفع، وهو يتبسم، ذلك الرأس الثقيل. وكان ذلك يحاكي ما يحدث في جو الحظيرة الدافئ، إذ تتلاطف الخيل فيضع بعضها عنقه على البعض الآخر. ولم أرَ

في حياتي ما هو أكثر ودًّا من ذلك. وحاول الجاويش محاولة أخيرة ليعود إلى أحلامه السعيدة ولينعتق من عالمنا، عالم الديناميت والعناء والليل المثلج. ولكن ذلك بعد الأوان. فقد أتاه شيء من الخارج وفُرض عليه كأنه ناقوس المدرسة يوم الأحد عندما يوقظ التلميذ المعاقب، وكان قد نسي القمطر والسبورة والواجبات المفروضة على المعاقبين، وكان يحلم بالألعاب في الريف، ولكن عبثًا، فقد دق الناقوس وأعاده بلا رحمة إلى عالم البشر، إلى ظلم البشر. وكان الجاويش كذلك التلميذ، فأخذ يحس شيئًا فشيئًا بذلك الجسد الذي أفناه التعب، بذلك الجسد الذي لم يكن يريده والذي سيشعر عما قليل في برد اليقظة بآلام المفاصل، ثم بعبء العُدَّة العسكرية، ثم بذلك السير الثقيل وبالموت. لن يشعر بالموت بقدر ما سيشعر بذلك الدم اللزج الذي يغمس فيه المرء يديه لينهض، وبذلك التنفس المضني، وبذلك الثلج المحيط به. لن يعرف من الموت مقدار ما سيعرفه من عناء الموت. وذكرت وأنا أرنو إليه ألمَ يقظتي أنا نفسي بالصحراء وألمَ تلك العودة إلى حمل عبء الظمأ والشمس والرمال، ألم العودة إلى حمل عبء الحياة، إلى ذلك الحُلم الذي لا خيار لنا فيه.

ولكن ها هو ذا الجاويش قائم على قدميه يحدق في أعيننا ويتساءل:

ـ هل حانت الساعة؟

وهنا بدا الرجل، فكان على خلاف ما يتوقعه المنطق: كان الجاويش يتبسم! فما هو يا ترى ذلك الإغراء الذي دفع به إلى هذا؟ تذكرت ليلة لي بباريس مع «مرموز» إذ كنا على عتبة مشرب في نهاية حفلة، وكنا في أول الفجر، وقد سئمنا كثرة الكلام وكثرة الشراب وشدة التعب هكذا بلا فائدة، ولما بدأت السماء تشحب قبض «مرموز» على ذراعي بقوة حتى إني أحسست أظافره، وقال لي:

ـ في هذه الساعة، في داكار...

كانت الساعة التي ينهض فيها الميكانيكيون فيدعكون عيونهم، ويرفعون أغطية الطائرات، كانت الساعة التي يذهب فيها الطيار ليطّلع على التنبؤات الجوية، ساعة تمتلئ فيها الأرض بالرفاق ولا أحد سواهم. لقد بدأت السماء تتلون وبدأ إعداد الوليمة ولكن لأناس غيرنا، ومُد سماط مأدبة لم نكن بالمدعوين إليها. وسيذهب أناس غيرنا ليخاطروا بحياتهم... وأتم «مرموز» كلامه قائلًا:

ـ يا لها من قذارة أن نكون نحن هنا...

وأنت أيها الجاويش لأي مأدبة دُعيت؟ لأي مأدبة تستحق أن تموت من أجلها؟

لقد بُحت لي بسِرِّك، وقصصت لي قصتك. كنت كاتب حسابات في مكان ما بـ«برشلونة»، وكنت تدوِّن أرقامًا من دون أن تشغل نفسك كثيرًا بالخلافات السياسية في وطنك. ولكن زميلًا التحق بالجيش الجمهوري ثم التحق به ثانٍ وثالث ورأيت نفسك تخضع لتحول عجيب، وكلك دهشة لذلك: فبدت لك مشاغلك شيئًا تافهًا، ورأيت مسرَّاتك وهمومك وراحتك المتواضعة كأنها آثار عصر سالف. ولم يكن ذلك أهمَّ شيء. ولكن أتى أخيرًا نبأ موت واحد منكم قتل بناحية مالقة، ولم يكن الأمر يتعلق بصديق تود أن تثأر له، ولم تكن السياسة قد أقلقت بالك أبدًا. وبرغم ذلك فقد هب ذلك الخبر عليكم وعلى مصائركم الوضيعة كما تهب رياح البحار. وتطلع إليك صديق في ذلك الصباح وسألك:

ـ أنذهب؟

فقلت له:

ـ نعم نذهب.

وذهبتما.

وتحضر بي بعض الصور، فتوضح لي تلك الحقيقة التي لم تعرف أنت أن تترجمها إلى كلمات ولكن بداهتها أخضعتك، واستولت عليك.

فعندما يأتي البط البري في موسم الهجرة، يصيب المناطقَ التي يغشاها اضطرابٌ غريب، فترى البط المستأنس يقوم بقفزات غير ماهرة فكأن طيران البط البري قد اجتذبه إلى ذلك. فالنداء البري قد أيقظ فيها، لست أدري أي بقايا من آثار البرية، وها هو ذا البط الداجن يستحيل ـ لفترة قصيرة جدًّا ـ إلى بط بريٍّ. وفي تلك الرؤوس الصغيرة، حيث تجري صور متواضعة للغدير والبحيرة والغذاء، تنبعث آفاق شاسعة وتنبت رغبة إلى الرياح النائية والبحار الشاسعة. وكان الحيوان يجهل أن عقله من السعة بحيث يستطيع احتواء كل هذه العجائب، ولكن ها هو ذا يخفق بجناحيه ويحتقر الحبوب والغذاء ويودُّ لو أصبح بطًّا بريًّا.

وعادت إلى ذاكرتي على الأخص صور غزالاتي التي كنت أربيها في «جوبي». والكل قد ربَّى غزلانًا هناك، وكنا نحجزها هناك في عريش في الهواء الطلق، فالهواء الجاري ضروري للغزلان ولا شيء أكثر منها تعرضًا للتلف. وهي تُؤسر في حداثتها فلا تموت، وتقدم لها

الطعام في يديك فتأكل، وتلاطفها فلا تفزع وتغمر فمها الندي في راحة يدك.

وتظنها قد استؤنست تظن أنك قد حميتها الألم الدفين الذي يقضي عليها في سكون ويجعل موتها هيِّنًا... ولكن يأتي يوم تراها فيه تُثقل بقرونها الصغيرة جدار الحظيرة من ناحية الصحراء. لقد خضعتْ لسحر جاذب وهي لا تدري أنها تهرب منك. وتحضر لها اللبن فتشربه وتلاطفها ثانية فلا تفزع وتغمر فمها بود أكثر في راحة يدك... وما تكاد تدعها حتى تراها تجري جريًا يُخيل إليك أنه جري سعيد ولكنها تعود إلى جدار الحظيرة وإذا لم تتدخل أنت لمنعها من ذلك فإنها تبقى هناك، وهي لا تحاول مقاومة الجدار، تستند إليه بقرونها ورأسها منخفض وتبقى هكذا حتى تموت. أهو موسم الحب، أم هي حاجة إلى العدو السريع الذي يبهر الأنفاس؟ إنها لتجهل ذلك، فلم تكن عيونها قد تفتحت بعد عندما أُسرت وجيء لك بها، وإنها لتجهل كل شيء عن الحرية بين الرمال كما تجهل رائحة الذَّكر. ولكنكم أيها الناس أكثر ذكاء منها، فأنتم تدرون ما تنشده الغزلان، إنها تنشد الآفاق الفسيحة التي تؤدي بها إلى الكمال، إنها تريد أن تصبح غزلانًا حقيقية وأن ترقص رقصتها الخاصة. إنها تريد أن تعرف الهرب

السريع في خط مستقيم، ذلك الهرب الذي تقطعه من آنٍ لآخر انفجارات فجائية كما لو كانت هناك ألسنة لهب تخرج من الرمال. وماذا تهم الذئاب الصحراوية، إذا كانت حقيقة الغزلان هي أن تتذوق الخوف الذي يضطرها إلى التفوق على نفسها ويجعلها تقفز أعلى القفزات؟! وماذا يهم الأسد إذا كانت حقيقة الغزلان هي أن تُصرع بضربة مخلب تحت نار شمس؟! وإنك لتنظر إليها وتقول: ها هو ذا الحنين قد استولى عليها. الحنين، ما الحنين؟ إنه الرغبة في شيء لا ندريه... تجدُ موضوع الرغبة ولكن لا كلمات لديك للتعبير عنها.

ونحن البشر، ماذا يعوزنا؟

وأنت أيها الجاويش، ماذا وجدت هنا مما جلب لك الشعور بألا تتنكب مصيرك بعد الآن؟ أهو تلك الذراع الرفيقة التي رفعت رأسك النائم، أم هو تلك البسمة الوديعة التي لم تكن بسمة الشكوى وإنما كانت بسمة المشاركة؟ فالشكوى معناها أنكما اثنان وأنكما ما برحتما منقسمين. ولكنْ هناك سموٌّ في العلاقات الإنسانية يجد فيه الإنسان أن الاعتراف بالجميل والرحمة قد فقدا معنييهما، هناك في ذلك السِّماك يتنفس الإنسان بحرية كَسَجين فُكت قيوده.

ولقد عرفنا ذلك الاتحاد عندما كنا نخترق «ريو دورو» وكانت لا تزال عندئذٍ من المناطق الثائرة. ولم أسمع أبدًا المصاب يشكر منقذه. وكنا ملاحي طائرتين وكثيرًا ما كنا نسب بعضنا أثناء نقل حقائب البريد من طائرة إلى أخرى، وهي عملية شاقة فكنت تسمع: «أيها القذر! إذا كانت الطائرة قد تعطلت فذلك بسبب خطئك ورغبتك الجنونية في الطيران على ارتفاع ألفي متر في صميم التيارات الهوائية المتضادة، ولو تبعتني على ارتفاع أقل لكنا الآن في «بور-إتيين»!» وترى ذلك الذي كان يهب حياته لإنقاذ زميله، خجلًا من أن يُدعى قذرًا. ولكن لماذا كنا نشكره؟ كان له هو أيضًا الحق في حياتنا فلقد كنا أغصان شجرة واحدة. وكنت أنا فخورًا بك يا من أنقذتني!

ولِمَ كان يرثي لك من يعدُّك للموت أيها الجاويش؟ كنتم تخاطرون جميعًا وكلكم يخاطر من أجل الآخر. وفي تلك اللحظة يكتشف المرء هذه الوحدة التي لم تعد بها حاجة إلى لغة لتعبر عنها. لقد فهمت رحيلك. فإذا كنت فقيرًا في «برشلونة»، وإذا كنت وحيدًا بعد انتهاء عملك، وإذا كان جسدك نفسه قد حُرم ما يحميه، فإنك هنا الآن تحس أنك تكمل نفسك، وأنك تتصل بحقيقة كونية، وها أنت المنبوذ تمسي الآن ضيفًا يستقبلك الحبُّ.

وإني لا أبالي أكانت كلمات السياسيين الضخمة التي بُذرت في نفسك، مخلصة أم لا، منطقية أم لا، إني لا أبالي ذلك، فإذا كانت قد نمت فيك كما تنمو البذور، فما ذلك إلا لأنها تستجيب لحاجاتك، فأنت الحكم الوحيد. والأرض هي التي تعرف كيف تميز بين البذور.

(٣)

فعندما تربطنا بإخواننا غاية مشتركة خارجة عنا، عند ذاك نستطيع أن نتنفس ونحيا. وتدلنا التجربة على أن الحب ليس أن ينظر بعضنا إلى بعض، وإنما أن ننظر معًا في اتجاه واحد. وليست هناك زمالة حقة إذا لم يتحد الزملاء في حزمة واحدة ويتجهون إلى قمة واحدة يلتقون فيها. وإلا فكيف يمكن في عصر الرخاء المادي، تفسير ذلك المرح العظيم الذي كنا نستشعره ونحن نتقاسم آخر ما بقي لنا من قوت في الصحراء؟ وماذا تساوي كل أقوال علماء الاجتماع أمام هذه الحقيقة؟ وأولئك الذين عرفوا المرح العظيم الذي يحسه المرء عندما ينقذ زميلًا منكوبًا بالصحراء يدركون أن أي مسرَّة أخرى تعَد شيئًا تافهًا بالنسبة إلى ذلك.

وربما كان هذا سبب بدء تصدع الدنيا من حولنا، فكل

واحد يلتهب حماسة لأديان تعده بذلك الكمال، وكلنا نُعبِّر عن أغراض واحدة وإن اختلفت وتناقضت كلماتنا، فاختلافنا هو اختلاف على وسائل أثمرها تفكيرنا، وليس اختلافًا على الغايات، فالغايات واحدة.

وعلى هذا فلا داعي للدهشة. فذلك الذي لم يكن يدري وجود شخص مجهول بين جنبيه، فإذا به يشعر أن ذلك الشخص قد استيقظ مرة واحدة في أحد كهوف الفوضويين بـ«برشلونة»، بفضل التضحية والمساعدة، وبفضل صورة تخيلها للعدالة، ذلك الإنسان لن يعرف إلا حقيقة واحدة: هي حقيقة الفوضويين. وذلك الذي قام مرة واحدة بالحراسة ليحمي فريقًا من الراهبات الراكعات الفزعات بأحد أديرة إسبانيا، ذلك الإنسان سيموت من أجل الكنيسة.

ولو أنك اعترضت على «مرموز» حين كان يغور في السفح التشيلي لجبال «الأنديز» وهو يؤمن بالنصر، لو أنك اتهمته بالخطأ وقلت له إن خطاب تاجر لا يساوي أن يخاطر من أجله بحياته، لو قلت ذلك لـ«مرموز» لضحك منك؛ فالحقيقة هي أنه كان ينشد ذلك الرجل الذي يولد بين جنبيه وهو يعبر جبال «الأنديز».

وإذا أردت أن تقنع رجلًا لا يكره الحرب، بوحشية

الحروب فلا تقل عنه إنه متوحش وإنما حاول أن تفهمه قبل أن تصدر حكمك عليه.

واعتبر بقصة ذلك الضابط الذي كان يقود مَرقبًا متقدمًا نحو خطوط الأعداء أثناء حرب الريف، وكان ذلك المَرقَب بين جبلين يحتلهما الثوار، فزاره ذات ليلة مبعوثون أتوا من الجبل الغربي؛ وبينما كانوا يشربون الشاي كالعادة المتَّبعة بدأ إطلاق النار من الجبل الشرقي فدفع الضابط بأولئك المبعوثين ليرحلوا لقتاله فأجابوه:

ـ نحن ضيوفك اليوم ولا يرضى الله أن نتركك.

وانضموا إلى رجال الضابط وأنقذوا المَرقَب ثم صعدوا سراعًا إلى جبلهم.

ولكن في اليوم السابق لمعاودة القتال أرسلوا مبعوثين للضابط:

ـ لقد ساعدناك في المرة السالفة.

ـ نعم.

ـ ولقد استنفدنا من أجلك ثلاثمائة خرطوشة.

ـ نعم.

ـ إذن فمن العدل أن ترجعها لنا.

ولم يستطع الضابط، وهو السيد الأريحيُّ، أن يستغل عملًا نبيلًا قام به أولئك القوم، فأرجع لهم خراطيشَ سيستخدمونها ضده.

فالحقيقة بالنسبة للإنسان هي كل ما يخلق منه إنسانًا. وعندما يقارن رجل عرف تلك العظمة في العلاقات الإنسانية، وذلك الولاء في العمل، وذلك التقدير المتبادل الذي يضحي بالحياة، عندما يقارن هذا الرجل ذلك السمو الذي كان من نصيبه، بطيبة رجل شعبي محبوب، يعبِّر عن إخائه لأولئك العرب، ويربت على أكتافهم ويتملقهم ولكنه يهينهم في نفس الوقت، فإنه ليشعر نحوك برحمة مشوبة بالاحتقار لو قلت إنه مخطئ. وسيكون هو على صواب.

ولكنك أنت أيضًا على صواب في أن تكره الحرب.

فلكي نفهم الإنسان وحاجاته، ولكي نعرفه في أخص خصائصه لا يصح أن نضع حقيقة أمام أخرى فالكل على صواب، والمنطق يثبت كل شيء. وإنه لعلى صواب ذلك الذي يُرجع مصائب الدنيا إلى حُدب الظهور. ولو أعلنَّا الحرب على الحُدب لعرفنا سريعًا كيف نتحمس لها ونثأر وثأرنا من الحُدب لما ارتكبوه من جرائم. والحُدب يرتكبون الجرائم بالتأكيد.

فيجب لكي نحاول استخلاص تلك الخصائص، أن ننسى لحظة واحدة تلك الخلافات التي تأتينا بعديد من الحقائق المقدسة التي لا يأتيها الباطل، والتي تؤدي بنا إلى التعصب. ويمكننا تقسيم البشر إلى أحزاب اليمين وأحزاب اليسار، وإلى حُدب وغير حُدب، وإلى فاشيين وديمقراطيين، وهذه الأقسام لا يمكن الطعن فيها. ولكنكم تعرفون أن الحقيقة هي ما يُبسِّط الدنيا لا ما يعقِّدها. الحقيقة هي اللغة التي تستخلص شيئًا كونيًّا. ولم يكتشف «نيوتن» قانونًا كان مخفيًّا منذ أمد بعيد كما يكتشف البعض حل لغز، وإنما قام بعملية فيها خلق، فبعث لغة بشرية تستطيع في نفس الوقت أن تفسر سقوط التفاحة في بستان وارتفاع الشمس في السماء. فليست الحقيقة هي ما يمكن إثباته، وإنما الحقيقة هي ما يبسِّط الكون.

وما جدوى مناقشة المذاهب الاجتماعية إذا كانت كلها تستطيع أن تثبت صحتها. ولكنها تتعارض كلها، وتلك المناقشات تجعلنا نيأس من إمكان خلاص الإنسان على حين أنه يُظهر نفس الحاجات في كل مكان.

إننا نريد جميعًا التحرر والخلاص. وذلك الذي يضرب الأرض بفأس يريد أن يعرف لضربته نتيجة ومعنى. وضربة الفأس من يد السجين تهينه وتذله. وما أبعدها عن ضربة

الفأس من يد المنقِّب عن المعادن، تلك الضربة التي تعظِّمه وترفعه. وليس السجن بالمكان الذي تُضرب فيه الأرض بالفؤوس، فلا وجود للعذاب المادي، وإنما السجن هو المكان الذي تكون فيه ضربات الفأس بلا معنى، هو المكان الذي لا تربط فيه تلك الضربات بين السجين وبين الجماعة البشرية.

وكلنا نبغي خلاصًا من السجن.

وفي أوروبا اليوم مائتا مليون رجل لا يجدون لحياتهم معنى ويريدون أن يولدوا من جديد، فلقد انتزعتهم الصناعة من صميم الريف، وألقت بهم في سجون عظيمة شبيهة بمحطات إصلاح عربات السكك الحديدية. ومن قاع تلك المدن العمالية، يريد أولئك الناس أن يستيقظوا.

وهناك قوم آخرون، استغرقتهم المِهن المختلفة وحُرِّمت عليهم مسرَّات الرواد ورجال الدين والعلماء. وظُن أنه يكفي أن نكسوهم ونطعمهم ونستجيب لحاجتهم ليبلغوا تلك العظمة المنشودة. ولكننا لم نخلق منهم إلا البرجوازي، ورجل السياسة الريفي، ورجل الصناعة الذي لا تتفتح نفسه لأي حياة داخلية. وإذا كنا نحسن تعليمهم فإننا لم نعد نثقِّفهم. وهناك رأي تافه عن الثقافة، ذلك هو الرأي القائل بأنها «استظهار بعض المعلومات».

ولكنَّ تلميذًا غير مجتهد من تلاميذ البكالوريا يعرف اليوم عن الطبيعة وقوانينها أكثر مما كان يعرفه «ديكارت» أو «باسكال». ولكن هل هو قادر على تسيير عقله مثلهما؟

والكل يشعر، مع التفاوت بينهم، بحاجتهم إلى أن يولدوا من جديد. ولكن هناك حلول خادعة. فيمكننا أن نبعث الحياة في الرجال بإلباسهم الملابس العسكرية. وسينشدون حينئذٍ أناشيد الجندية ويقتسمون خبزهم كزملاء، ويجدون ما كانوا ينشدونه، ويعرفون طعم شيء كونيٍّ، ولكنهم سيموتون من هذا الخبز الذي يُقدَّم لهم.

ويمكننا أن نُخرج الأوثان من باطن الأرض وأن نبعث الحياة في الأساطير القديمة التي أثبتت وجودها بدرجات مختلفة، وأن نعيد العقائد البائدة كالجامعة الجرمانية والإمبراطورية الرومانية، ويمكننا أن نُسكر الألمان بخمر الوطنية الألمانية وبفخر أنهم مواطنو «بيتهوفن»، يمكننا أن نُسكر حتى الدهماء، وذلك من غير شك أسهل من أن نخرج من الدهماء «بيتهوفن» آخر.

ولكن هذه المعبودات، معبودات من أكلة اللحوم. وذلك الذي يموت من أجل تقدم المعارف أو شفاء الأمراض، ذلك الشخص يخدم الحياة بموته. ولربما كان جميلًا أن يموت المرء من أجل التوسع الجغرافي، ولكن حرب

اليوم تهدم كل ما تدَّعي أنها تبنيه. فليست المسألة اليوم مسألة تضحية بعض الدم لتقوية الجنس كله، فالحرب منذ أن استخدمت الطائرة والغازات السامة أصبحت جراحة دموية، فكل فريق يحتمي بحائط من الأسمنت ويقذف ليلة بعد أخرى بأسراب تضرب الفريق الآخر في أحشائه فتهدم مراكزه الحيوية وتشل إنتاجه وتجارته. والنصر لمن يفنى أخيرًا. ولكن الخصمين يصيبهما الفناء معًا.

وفي عالم قد أضحى صحراء، أصابنا الظمأ إلى ملاقاة الزملاء، وجعلنا ذلك الخبز الذي نتقاسمه وإياهم، نتقبل الحرب وقيمها؛ ولكننا لسنا مضطرين إلى الحرب لنعرف حرارة العَدْو مع زملائنا نحو غرض واحد، فالحرب تخدعنا، ولن تضيف البغضاء شيئًا إلى حماس السباق.

ولِمَ نتباغض ونحن نعيش لغرض واحد، يحملنا كوكب واحد؟ لِمَ نتباغض ونحن نواتيُّ فُلْك واحد؟ وإذا كان حسنًا أن تتعارض الحضارات لتأتينا بثمرات جديدة، فإنه من المفزع أن تلتهم تلك الحضارات بعضها بعضًا.

وإذا كان يكفي، لكي نحرر أنفسنا، أن نتعاون على فهم الغرض الذي يصلنا، فلنبحث عنه معًا ليربط بيننا جميعًا. والطبيب الذي يفحص مريضًا لا يستمع إلى شكايات من يفحصه؛ لأنه يبحث من وراء ذلك المريض عن الرجل

الذي يريد أن يشفيه وهذا الطبيب يتكلم لغة كونية. وهكذا يفعل عالم الطبيعة عندما يتأمل المعادلات التي تفسر الذرة كما تفسر السديم. وهكذا حتى الراعي البسيط. ذلك لأن من يسهر على غنمه تحت النجوم، لو قدَّر دوره في الحياة، لرأى أنه أعظم من خادم. إنه حارس، وكل حارس مسؤول عن الدولة كلها.

أوَتظن أن ذلك الراعي لا يتمنى أن يفهم دوره في الحياة؟ زرت في جبهة مدريد مدرسة مقامة على تلٍّ يبعد خمسمائة متر عن الخنادق، وراء جدار حجري صغير، ورأيت فيها جاويشًا يلقي درسًا في علم النبات. وكان يفصل بين أجزاء نبات الخشخاش ويجذب نحوه حجيجًا من الرجال طويلي اللحى، يصعدون إليه برغم القنابل فيتخلصون من وضرهم، وما يكادون يصطفون حول الجاويش حتى يقبلوا عليه مُنصتين وهم جلوس حوله وذقونهم مرتكنة إلى أيديهم، وكانوا يرمشون، ويضغطون على أسنانهم ولم يفهموا شيئًا كثيرًا من ذلك الدرس، ولكن البعض قد قال لهم: «أنتم كالوحوش. لمَّا تغادروا جحوركم بعد، عليكم أن تلحقوا بالإنسانية!»، ولقد ساروا مسرعين ليلحقوا بها.

وعندما نفهم دورنا مهما كان ضئيلًا، عندئذٍ فقط نستطيع

أن نصبح سعداء. عندئذٍ فقط نستطيع أن نعيش في سلام وأن نموت في سلام، لأن ما يعطي الحياة معنى يعطي الموت أيضًا معنى.

والموت حلو عندما يتفق وطبيعة الأشياء، وإليك مَثَل فلاح «البروفانس»، فعندما يصل إلى نهاية مطافه، يُسلم وديعته من الماعز وأشجار الزيتون إلى أبنائه حتى يسلموها هم بدورهم إلى أبناء أبنائهم. وهكذا لا يموت المرء في العائلات الريفية إلا نصف موت، فكل حياة تتشقق بدورها كقرن نبات جاف، وتخرج بذورها.

وجلست مرة بجوار ثلاثة فلاحين، أمام أمهم وهي على فراش الموت، وكان ذلك من غير شك منظرًا مؤلمًا. فها هو ذا الحبل السُّري ينفصم للمرة الثانية، وكانت العقدة التي تربط جيلًا بآخر تُحل للمرة الثانية. ورأى هؤلاء الأبناء أنفسهم وحيدين، وعليهم أن يتعلموا كل شيء، رأوا أنفسهم يُحرمون من المائدة العائلية التي تجمع شملهم أيام الأعياد والحفلات، ويُحرمون من القطب الذي كانوا فيه يلتقون. ولكني اكتشفت أن الحياة يمكن أن تُوهب للمرة الثانية بعد ذلك الانفصال. فهؤلاء الأبناء سيصبحون بدورهم رؤوسًا لصفوف جديدة، ونقطًا يلتقي فيها الأبناء، حتى تحين الساعة التي يسلمون فيها القيادة

بدورهم إلى هذا الفريق من الصغار الذين كانوا يلعبون في الفناء.

وتطلعت إلى الأم، تلك الفلاحة العجوز، ذات الوجه الهادئ الجامد والشفتين المزمومتين، تطلعت إلى هذا الوجه الذي استحال قناعًا صخريًا، وعرفت فيه وجه الأبناء. فهذا القناع قد طبع وجوههم على صورته، وهذا الجسم قد استُخدم لصوغ أجسادهم فأخرج هذه النسخ البشرية الجميلة. والآن رقدت الأم محطَّمة ولكنها كغلاف ثمرة أخرج فاكهته. وسيأتي دور هؤلاء البنات والبنين فيصوغون بلحمهم ودمائهم بشرًا آخرين. ولم يمت أحد في المزرعة. ماتت الأم، فلتحيَ الأم!

نعم إنها مؤلمة هذه الصورة العائلية ولكنها بسيطة، فهي تسير نحو حقيقة لا أدريها، خلال انسلاخاتها المتعددة، مخلِّفة في كل مرة حطامها البشري.

ولهذا بدا لي ناقوس الأموات بتلك القرية الصغيرة في ذلك المساء مُحملًا لا باليأس، وإنما بأمل خفي حلو. فهذا الذي يعلن، بنفس الصوت، الميلاد والوفاة، قد أعلن في تلك الليلة الانتقال من جيل لآخر. ولم يكن المرء ليحس إلا سلامًا عظيمًا وهو يستمع إلى الاحتفال بقران هذه العجوز مع الأرض.

وهكذا تنتقل الحياة، كما ينتقل الضمير الإنساني، من جيل إلى جيل، في تقدم بطيء يحاكي نمو الشجرة. فيا له من سمو عجيب! من حمم بركاني، من طينة كوكب، من خلية حية نمت بمعجزة. من ذلك نشأنا، ثم سَمَونا شيئًا فشيئًا حتى أصبحنا نكتب الشعر ونبحث في السماء.

لم تكن الأم قد نقلت إلى أبنائها الحياة فحسب، وإنما علمتهم لغة وعهدت إليهم بذلك المتاع المتجمع على مَر العصور، وعهدت إليهم بذلك الميراث الروحي الذي تلقته هي أيضًا من أمها، ذلك النصيب من التقاليد والمعتقدات والأساطير التي تكوّن كل الفرق بين «نيوتن» أو «شكسبير» وبين وحش الكهوف.

وإن ما نشعر به عندما يصيبنا الجوع ـ ذلك الجوع الذي كان يدفع جنود إسبانيا إلى تلقي درس في علم النبات بين طلقات الرصاص، ذلك الجوع الذي دفع «مرموز» إلى الأطلسي الجنوبي، ذلك الجوع الذي يدفع الشاعر إلى قصيدته ـ هو أن الخليقة لم تبلغ الكمال بعد، وأنه لا بد لنا من أن نعي أنفسنا وأن نعي الكون. لا بد لنا في الليل، من أن نقيم المعابر التي تصلنا بالحقائق. وما يجهل هذا إلا أولئك الذين بنوا فلسفتهم على عدم المبالاة، وحسبوا ذلك أنانية. ولكن كل شيء ينقض فلسفتهم.

أليس كذلك يا رفاق؟ إني أدعوكم للشهادة فقولوا: متى أحسسنا السعادة؟

(٤)

وهأنذا أذكر في آخر صفحة من هذا الكتاب، أولئك الموظفين الهرمين، الذين كانوا آخر مشيعينا في فجر رحلتنا الأولى عندما كنا نهيئ أنفسنا لنستحيل إلى رجال، بعد أن كان لنا الحظ في أن نُختار لذلك، لقد كانوا شبيهين بنا ولكنهم لم يدروا أنهم جياع.

وما أكثر من يُتركون في نومهم.

منذ بضع سنين كنت على سفر طويل بالسكة الحديدية فأردت أن أزور ذلك القطار الذي كنت سجينه لمدة ثلاثة أيام وسط هذا الهدير الذي يحاكي هدير البحر، فقمت حوالي الساعة الواحدة صباحًا وعبرت القطار كله. وكانت عربات النوم خالية، وعربات الدرجة الأولى خالية. أما عربات الدرجة الثالثة فكانت تحوي مائتين من العمال البولونيين الذين استُغني عنهم في فرنسا، وكانوا عائدين لوطنهم بولونيا. كنت أسير في الممرات متخطيًا أجساد الناس وأحيانًا أتوقف لأرقبهم. وبينما أنا واقف تحت

مصباح، لمحت في هذه العربة غير المُقسَّمة، الشبيهة بثكنات الجنود، والتي تفوح منها رائحة المعسكر أو مركز البوليس، لمحت أناسًا مختلطين تُخضخضهم حركات القطار. شعب بأكمله يغط في نومه وفي أحلامه المزعجة، شعب يعود إلى بؤسه. رؤوس ضخمة حليقة تجري على خشب المقاعد. رجال ونساء وأطفال يتقلبون ذات اليمين وذات الشمال كأن الضجة كلها والهزات جميعها قد هاجمتهم وهدتهم. ولم يكن النوم قد أكرم وفادتهم.

وها هم أولاء يبدون لي وكأنهم قد فقدوا صفتهم الإنسانية، فقذفت بهم التيارات الاقتصادية من طرف أوروبا إلى طرفها الآخر ثم انتُزعوا من البيت الصغير - بشمال فرنسا - ذي الحديقة الدقيقة، والذي تزين نافذته ثلاثة أصص من زهر الجرانيوم كنت قد لاحظت وجودها على نافذة أحد عمال المناجم البولونيين. ولم يحملوا معهم إلا أدوات المطبخ والملاحف والستائر، وقد وضعوها في لفائف سيئة الربط فبرزت محتوياتها. ولكنهم تركوا وراءهم كل ما أعزوه وأحبوه، وكل ما نجحوا في استئناسه أثناء سنواتهم الأربع أو الخمس التي قضوها بفرنسا، تركوا القط والكلب وزهر الجرانيوم، فاضطروا للتضحية بها جميعًا ولم يحملوا معهم إلا أدوات المطبخ.

رأيت طفلًا يرضع ثدي أم منهكة حتى إنها كانت تبدو نائمة، وهكذا كانت الحياة تنتقل من جسد إلى جسد في فوضى هذه الرحلة وشذوذها. وتطلعت إلى الوالد فرأيت جمجمة ثقيلة عارية كأنها حجر أملس، وجسمًا مكوَّمًا سجينًا في ملابس العمال، جسمًا تشوهه البروز والفجوات. كان الرجل شبيهًا بكومة من الصلصال. وهكذا تبدو لفاظات البحر في الظلام على موائد الأسواق. وقلت لنفسي: ليست المشكلة في هذا البؤس ولا في هذه القذارة ولا في هذا القبح. فهذا الرجل وهذه المرأة قد التقيا ذات يوم، وتبسم الرجل للمرأة وحمل إليها بعد انتهاء العمل أزهارًا، وكان خجولًا مرتبكًا، وربما كان يرتجف لأنه لاحظ احتقارها له، ولكن المرأة ـ لرغبتها الغريزية في التجمُّل ولثقتها بجمالها ـ كانت تتسلى وتعبث بإقلاق هذا الرجل. وهو الآخر ـ ولم يعد اليوم إلا آلة للحفر أو الطرق ـ كان يشعر في صميم قلبه بقلق حلو. السر الغامض هو كيف استحال هذان الشخصان تلك اللفائف القبيحة من الصلصال؟ وفي أي قالب شنيع مر جسداهما حتى ترك فيهما هذه الآثار؟ إذا هرم الحيوان احتفظ برشاقته، فلماذا يفسد هذا الصلصال الإنساني الجميل؟

وواصلت رحلتي بين هؤلاء القوم الذين كان نومهم قلقًا

مضطربًا كأنه ماخور. وكانت تطفو ضجة من الشخير الجاف والشكايات الغامضة، وصوت نعال أولئك الرجال وهم يتقلبون من جانب إلى آخر، وذلك الهدير الدائم كأنه هدير الأحجار يدوِّمها البحر.

وجلست أمام رجل وزوجه. وكان بينهما طفل حفر لنفسه مكانًا نام فيه ولكنه كان يتقلب في نومه. وبدا لي وجهه في ضوء المصباح. يا له من وجه رائع! لقد أنجب هذان الشخصان طفلًا كأنه فاكهة مذهَّبة. لقد أنجب هذان الخشنان الغليظان قطعة رائعة من الجمال والرقة. وانحنيت على هذا الجبين الناعم وعلى هاتين الشفتين المزمومتين في جمال، وقلت لنفسي: هذا وجه موسيقي، هذا «موتسارت» الطفل، هذه هدية جميلة من الحياة وإن الأمراء الصغار الذين كنا نسمع عنهم في الأساطير لا يختلفون عنه في شيء، فماذا يصبح هذا الطفل لو حُمي ورُعي وثُقِّف؟ عندما تنبت في الحديقة وردة جميلة يهبُّ البستانيون فيعزلونها ويعنون بها ويميزونها عن غيرها. ولكن ليس للناس بستانيٌّ. فـ«موتسارت» الطفل سيترك فيه القالب آثاره كما يفعل ببقية الناس، وسيجد مسرَّاته العظمى في سماع الموسيقى العفنة بالمقاهي الفاسدة. إن «موتسارت» هذا، مقضيٌّ عليه بالإعدام.

وعدت إلى عربتي وأنا أقول لنفسي: لم يعد هؤلاء الناس يتألمون لحالهم. وليس الإحسان هو ما يقلق بالي. فليست المسألة أن نرثي لجرح ولا يلتئم، فأولئك الذين يحملون الجرح لا يحسونه. والجريح هنا هو النوع الإنساني وليس الفرد. ليس البؤس هو الذي يعذبني فإن الإنسان ينتهي إلى الرضا بذلك البؤس. وطبقات عديدة من الشرقيين تعيش في القذارة سعيدة لا يقلقها شيء. ما يعذبني هو شيء لا تشفيه مطاعم الشعب. ليس ما يعذبني هو ذلك القبح البادي. ما يعذبني هو «موتسارت» الصريع في كل فرد من هؤلاء الناس.

وليس هناك إلا الروح، لو هبَّت على الصلصال لاستطاعت أن تخلق الإنسان.

ترجمات الكرمة

١. صونيتشكا - لودميلا أوليتسكايا. ترجمها عن الروسية: عياد عيد.

٢. سالباتييرًّا - بيدرو مايرال. ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال.

٣. أصوات المساء - نتاليا جينزبورج. ترجمتها عن الإيطالية: أماني فوزي حبشي.

٤. النورس جوناثان ليفنجستون - ريتشارد باخ. ترجمها عن الإنجليزية: محمد عبد النبي.

٥. جاتسبي العظيم - ف. س. فيتزجرالد. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مستجير مصطفى.

٦. الاعتداء - هاري موليش. ترجمتها عن الهولندية: أمينة عابد.

٧. صباح ومساء - يون فوسه. ترجمتها عن النرويجية: شرين عبد الوهاب وأمل رواش.

٨. الإوزَّة البريَّة - أوجاي موري. ترجمها عن اليابانية: ميسرة عفيفي.

٩. عشيق الليدي تشاترلي - د. هـ. لورانس. ترجمها عن الإنجليزية: أمين العيوطي.

١٠. الوعد - فريدريش دورِنمات. ترجمها عن الألمانية: سمير جريس.

١١. طيف ألكسندر ولف - جايتو جازدانوف. ترجمها عن الروسية: هفال يوسف.

١٢. رسائل إلى شاعر شاب - راينر ماريا ريلكه. ترجمها عن الألمانية: صلاح هلال.

١٣. قلب الظلمات - جوزيف كونراد. ترجمتها عن الإنجليزية: هدى حبيشة.

١٤. تقرير موضوعي عن سعادة مدمن المورفين - هانز فالادا. ترجمه عن الألمانية: سمير جريس.

١٥. أرض البشر - أنطوان دو سانت اكزوبيري. ترجمها عن الفرنسية: مصطفى كامل فودة.

١٦. ملحمة أسرة فورسايت: صاحب الملك - جون جالزورذي. ترجمها عن الإنجليزية: محمد مفيد الشوباشي.

«الجائزة الأمريكية القومية للكتاب» ١٩٣٩

«من أفضل عشرة كتب مغامرات ورحلات في التاريخ»

«ناشونال جيوجرافيك»

«جائزة أفضل كتاب مغامرات في المائة عام الماضية» ٢٠٠٢

مجلة «أوتسايد»

«كتاب جميل، وكتاب شجاع، وكتاب يجب أن يُقرأ في مواجهة فوضى هذا العالم»

«النيويورك تايمز»

«هناك بعض الأفراد النادرين، الذين يضيفون، بمجرد وجودهم، ميزة للحياة، إذ توقظ دهشتُهم المستمرة أمام إمكانياتها شعورَنا الكامن بالتجدد والترقب. ولم يبرز أحد قَط في هذا الصدد بشكل أكثر وضوحًا من الطيار والأديب الفرنسي أنطوان دو سانت اكزوبيري»

«نيويورك تايمز بوك رفيو»

بأسلوب أدبي بديع، وبروح فلسفية، يُصوِّر لنا مؤلف «الأمير الصغير» عظمة الطيران وإثارته وأخطاره وعزلته.

منذ عام ١٩٢٦ قاد «سانت اكزوبيري» طائرات البريد الجوي عبر صحراء شمال أفريقيا. ومن هذه التجربة الفريدة، التي قابل فيها العرب الرُّحل، استمد موضوع كتابه: «أرض البشر». إنها سيرة ذاتية ممتعة وعميقة، حول تعرُّف المرء على نفسه من خلال تصرفاته أمام ما يصادفه من تحديات، تصل إلى ذروتها عندما يحكي لنا «سانت اكزوبيري» عن نجاته بأعجوبة بعد تحطم طائرته في الصحراء الليبية.

شهادة حياة مثيرة ومبهرة، ترجمها لنا مصطفى كامل فودة بأمانة وجمال.



ISBN 978-977-6467-82-8
9 789776 467828